حياة محمد هيكل

بقلم : د. حسين فوزى النجار

الفكر المصرى الحديث

نشأ الدكتور محمد حسين هيكل فى مدرسة لطفى السيد الفكرية ، وفى نفس بيئته الاجتماعية ولعل الرباط الاجتماعى الذى وصل مابين الرجلين، قد جعل لأستاذ الجيل دورا فى توجيه حياته تلك الوجهة التى سار فيها على درب الحياة حتى فارقها فى الثامن من ديسمبر ١٩٥٦ قبل سبع سنوات وأربعة شهور من وفاة أستاذه فى الخامس من مارس ١٩٦٣ .

ففى قرية كفر غنام القريبة من قرية برقين حيث نشأ لطفى السيد وفى ٣٠ أغسطس ١٨٨٨ ولد «محمد» الطفل البكر للشيخ حسين سالم هيكل — أو حسين أفندى كما أصبح يدعى فيما بعد حين تحول عن الزى الشرقى الى الزى الأوربى الجارى — سيد قومه وعشيرته ، ومن تلك الطبقة المصرية الصميمة التى أخذت تسود الريف المصرى وترث ماكان للطبقة التركية القديمة من ثراء ونفوذ يعززهما جاه العشيرة وعصبية الأسر الريفية التى تجمع القرية فى رباط من الصلات الأبوية يصفها الدكتور هيكل فى مقال نشر فى مختارات دار الهلال — عام ١٩٤٦ بعنوان « الحياة محبة » قال فيه .

« الحياة محبة ، محبة شاملة لكل مافى الحياة ولاخواننا بنى الانسان جميعا محبة صادقة تعطر جو الحياة كلها وتجعل الناس يتحركون فيه على أنه الهواء الذى يتنفسون والنور الذى به يهتدون. ماذا ؟ لست أريد أن أبدأ بشرح فكرتى . وانما أريد رسم صورة الحياة كما كانت فى دار طفولتى لأصور الفكرة كما تدور بخاطرى ، ولأترك لمن شاء تقديرها كما يشاء .

« كان جدى عمدة البلد وكان يناهز السبعين حين ولدت ، ولشيخوخته هذه على ماأظن — تواضع أهل القرية ، فأطلقوا عليه شيخ البلد — وكان رجلا مثلا فى التقى والورع ، ولأنه كان أكبر اخوته ، فقد كان هو الذى يدير أملاك الأسرة كلها وكانوا جميعا كما كان أبناؤهم يقيمون واياه بدار واحدة ، أطلق الناس عليها اسم « الدار الكبيرة» لأنها كانت كبيرة بالفعل ، وكان قطان هذه الدار من

أهلنا يزيدون على المائة عدا ، وكانت لهم بهاطاحونة لاتهدأ الليل ولا النهار ، وأفران لتحميص الحب وأخرى لخبز العيش ، اختص بالعمل فيها بعض نساء الدار سواء من أهلها أو من أتباعهم .

« كنا نحن الصغار تتناول الطعام فى الدار، أما جدى فكان يتناول طعامه فى المضيفة القائمة الى مقربة من الدار الكبيرة ومن باقى المبانى العائلية ، ولم يكن قط يتناول طعامه من غير أن يحيط به من أهل البلد ومن الضيوف عدد غير قليل ومن هؤلاء أناس من أهل القرية عضتهم الحاجة فلاذوا بشيخ البلد يقضون أكثر وقتهم الى مقربة منه ، ويتناولون الطعام واياه ، ومنهم عدد غيرقليل من أهله ، أما الدارالكبيرة فلم يكن يقتصر تناول الطعام فيها على أهل الأسرة ، بل كان التملية الذين يشتغلون فى المزارع يتناولون فيها طعام العشاء بعد عودتهم من عملهم ، وكانوا يجلسون كتفا الى كتف مع أبناء العائلة ويشعرون جميعا كأنهم أسرة واحدة .

« كانت الحياة محبة بين أهل القرية فى ذلك الزمن النائى القريب ، ذلك الزمن الذى شهدنا نحن من لانزال فى صيف العمر ، لم تتخطه بعد الى الخريف أو لو تطورت حياة الجماعة المصرية فى هذا الدرب وبقيت هذه الحياة محبة تزداد كلها كلما ازداد الناس معرفة للحياة واتصالا بها ، أفما كان ذلك خيرا من هذه الحياة التى استعرنا من الغرب ، والقائمة على أساس من الأثرة والشحناء والتنافس والبغضاء »

على هذا الصورة التى كانت قائمة الى عهد غير بعيد تفتحت عين الطفل محمد ونشأ نشأة غيره من أبناء أعيان الريف ، وهم طبقة ظهرت فى أواخر عهد اسماعيل واستكملت نموها خلال الاحتلال البريطانى حين أراد أن يخلق منها كفاء للطبقةالتركية السائدة وندا لها يفيد من تنافسهما ، وقد ظل الانجليز يمنون على المصريين بأنهم أنقذوهم من استبداد الخديو وجور الأتراك والجراكسة ومن أوضار الرشوة والسخرة والكرباج ، ولا يشيرون الى أنهم قضوا على ثورة المصريين بقيادة عرابى ضد الترك والجركس وصانوا عرش الخديو .

ولم يشهد الطفل الذى كان يدرج من الثالثة الى الرابعة من عمره حين تولى عباس حلمى الثانى منصب الخديوية أوضار الترك ومساوىء الخديويين ولكنه حين بلغ السن التى تبين فيها الأشياء واضحة للانسان — كما يقول — قد بقيت فى أذهاننا نحن أبناء الريف المصرى ، صورة قائمة من حكم الترك . ومن حكم الخديويين أنفسهم حين كان لهم وللترك السلطان المطلق الذى أدى الى ثورة عرابى ، فكثيرا ما حدثنا أباؤنا وأجدادنا وحدثتنا أمهاتنا وجداتنا عن حكم أولئك النفر الذين كانوا يزدرون المصريين أشد الازدراء ويحقرونهم أشد التحقير ، ويضربونهم بالسياط لسبب ولغير سبب وهذا ما يعبر عنه المثل العامى — آخر خدمة الغزعلقة — والغز هم الغزاة الأتراك والجراكسة ومن اليهم « وان ذهبت » صورة هذا الماضى المظلم ولم تكن بالنسبة لجيلنا أكثر من صورة ، يرسمها الحديث حكاية عن الماضى بعد أن لم يبق فى الواقع منها شىء ، أما الواقع فكان السلطان المطلق فيه للانجليز ، وكان الانجليز من جانبهم كذلك يزدرون المصريين أشد الازدراء ، ويحقرونهم أشد التحقير وان لم يكونوا يضربونهم بالسياط .

وبكر به أبوه الى كتاب « الشيخ ابراهيم جاد » بالقرية ، فحفظ القرآن ، ثم بعث به الى

القاهرة فحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠١ من مدرسة الجمالية وانتقل منها الى الخديويةفأتم فيها دراسته الثانوية وحصل منها على البكالوريا « عام ١٩٠٥ ، وأزمع السفر الى انجلترا لدراسة الهندسة وفى ذلك العام توفى جده « الشيخ سالم هيكل » وجاء أحمد بك لطفى السيد للعزاء وجرى الحديث فيما جرى حول الاتجاه الذى يختاره محمد لدراسته ، واختار له لطفى السيد دراسة الحقوق على غير ما كان يرى الشاب الذى يتوق للسفر الى الخارج ، ونزل الشاب على رأى استاذه بعد أن وعده بأن يبعث به أبوه الى الخارج للحصول على الدكتوراه بعد اتمام دراسة الحقوق فى مصر ، وهكذا رسم استاذ الجيل حياته فى بدايتها .

وتخرج محمد حسين هيكل من مدرسة الحقوق عام ١٩٠٩ ، وسافر الى فرنسا فحصل على الدكتوراه من السوربون برسالة عن « دين مصر العام » عام ١٩١٢ ، وعاد الى مصر ليفتتح مكتبا للمحاماة بالمنصورة .

وفى تلك السنوات من بواكير القرن العشرين كانت مصر تجتاز مرحلة المخاض العسير لولادة فكر مصرى متميز ، وتودع آخر مراحل القلق الفكرى الذى يشوب الصراع بين القديم والجديد، وبدأ الجيل الجديد يتمثل الموجة الغربية ويعمل على تطوير الحياة المصرية الى نمطها الأوربى الجديد ومزج العقليتين المصرية والغربية ، فى جرأة يشوبها العناء ، جرأة مبدعة خلاقة بناءة ، ولكنهم كانوا يكشفون فى نفوسهم كل يوم عن رواسب عميقة من تراث الماضى البعيد ، لا يتبينونها وان كانت تشدهم اليها شدا لا يستطيعون الفكاك منه ، فقد اجتاحتهم الموجة الغربية ، وكانت من القوة بحيث قذفت بهم مبهورين بالجلال والجمال والابداع العقلى الذى حفل به الفكر الأوربى فى القرن التاسع عشر ، بعيدا عن جذورهم الأولى ، يدفعهم التحدى لملاقاة الحركة المحافظة التى سفرت وهى تجتاز صحوة الموت ، عن جمود اتسم بالعنف فى مواجهة دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة ، وفى موقفها من كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين والاسلام وأصول الحكم للشيخ على عبد الرازق.

وكان العناء الذى يعوق جرأة هذا الجيل الجديد من الشباب هو فى أنهم لم يسبروا أغوارهم ليتعرفوا على مكنون نفوسهم حين جرفتهم الموجة الغربية بابداعها الذى سيطر على عقولهم وان لم يقهر تراث الماضى فى نفوسهم . وحين دفعتهم جذوة التحدى للجمود ، فضلوا أهدافهم ولم يهتدوا حتى رجعوا الى نفوسهم يستجلون مكنونها ويكشفون عن رواسبها القديمة ، تلك الرواسب التى تذهب بعيدا عبر آلاف السنين من تاريخ مصر الطويل . وكان هيكل أول من عرف نفسه واستدل على شخصيته فاستقام له منهج البحث والمعرفة بعد جهد ولأى وكانت حياته صورة لتلك الجرأة وهذا العناء فى تاريخ جيله .

ويصور هيكل هذا التطور فى تفكيره تصويرا بديعا فيقول وكأنه يصور التطور فى تفكير جيله عامة : « وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعا هدى ونبراسا ، لكننى أدركت بعد لأى أننى أضع البذر فى غير منبته فاذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبت التمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحى هذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة ، فاذا الزمان واذا

الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة ، فرأيت أن تاريخنا الاسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس ، وتجعلها تهتز وتربو ، ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين .

هذا هو الجيل الذى قدر لهيكل أن يعيش فيه، وقد استشرق صباه على عتبـــائه ، حين استوت البيئة المصرية لابتلاع الموجة الغربيـــة ، وحين أخذت مصر تستقبل أدق مراحل تطورها الاجتماعى والفكرى والسياسى والاقتصادى .

وكان هيكل أكبر اخوته وابن سيد عشـيرته يذهب الى مدرسته بالقاهرة فى موسم الدراسة . ويقضى عطلة الصيف بقريته كفر غنام ، وكان له مزاجه الخاص يمضى وقته فى القراءة أو الكتابة أو فى النظر الى طبيعة الريف أكثر مما ينساق اليه شباب الريف من تلاميذ المدارس ، وتحمله هواية الكتابة الى اصدار مجلة للقرية دعاها «الفضيلة» يطبعها على (البالوظة) ويوزعها على القراء فى كفر غنام وما جاورها من القرى ، ولعله وهو يصـدر « الفضيلة » لم يكن يدرى أنه سيغدو بعد عقدين من الزمان امام الصحفيين فى مصر والشرق العربى عامة ، وأنه سيرأس تحرير صحيفة يومية وأخرى أسبوعية تضمان أعلام الفكر فى جيله ، فما نراه يتجه الى الصحافة وانما ينصرف عنها الى المحاماة وان بقيت هواية الكتابة تدفعه الى التأليف والى الكتابة فى الصحف .

وكان شغفه بالريف كشغفه بالقراءة والكتابة ، يطوف به مغرقا فى تأملاته يستجلى مفاتنــه هيمان بكل مواطن الجمال فيه ، يحسه فى غناء العذارى حين جنى القطن ، ويراه فى (الموردة) حين ترد الصبايا لملء جرارهن ، ويستصـــحبه فى وجوه الجميلات من بنات الريف وقدودهن المياســـة تحت جلابيبهن السوداء الطويلة .

وتظل هذه الصورة ، صورة القرية والحقل . والأسر الريفية بتقاليدها ومأثوراتها محفـورة فى ذهنه ، وتكون قصة « زينب » أول قصة فى الأدب المصرى الحديث ، رجع هذه الصورة فى نفســه ، حين يشتد به الحنـين فى باريس الى الوطن والى مراتع الصبا ، وصبوات الشباب الباكر ، فزينب هى ثمرة الحنين الى الوطن والحنين وحده ، كما يقول هو الذى دفع به الى كتابة هذه القصـــة « ولولا هذا الحنين ما خط قلمه فيها حرفا واحدا ولا رأت هى نور الوجود،وزينب هى قصة شبابه « أراها تمثل شبابى تمثيلا صحيحا ، وأن فيهـــا لذلك كثيرا مما أحب ، ســـواء لأنه دخل عالم الذكرى حتى لأعجز ان حاولت استعادته ، أولأنه يمثل احلام الشباب وخيالاته مما أبسم اليــوم له كما أبسم لما أسمع من خيالات وأحلام لشبان هم اليوم فى مثل سنى يومئـــذ ، ولأنه بعض عزم الشباب ومضائه هذا العزم الذى لا يعـــرف المستحيل ، بل يعرف كيف يتغلب على كل مشقة ويذلل كل عقبة ويستسهل كل صعب ويحقق كل خيال ، أو لأنه يشدو بموسيقى الصبا الحـلوة ، العذبة ، المنبعثة من كل موجود فى الأرض أو فى السماء ، والتى تتغنى بأهازيج الحب والوجد كما يعرفها الصبا ، خالية من كل ما يفجع ، طائرة على أجنحة من الأمل الى جنات فيحاء كل ما فيها ورد وريحان وحور عين ، بل ان لفجائع الشباب لشعرا له روعته وموسيقاه ، هذا وغيره من صور الصبا المرسومة فى زينب يمثل شبابى ولذلك أحن اليوم

اليه حنين القلب الى مثوى محبوب ذهب ولن يعود » .

عاد هيكل الى مصر يحمل لقب دكتور فى القانون فيكون أول من يحمل هذا اللقب العلمى من بنى مصر جميعا ، فيشتغل بالمحاماة ويفتتح لذلك مكتبا فى المنصورة ولا تصرفه شواغل عمله الجديد عن عن قراءاته المتصلة فى الفلسفة والأدب والتاريخ والسياسة وتنتدبه الجامعة محاضرا فى مدرسة الحقوق الى جانب عمله فى المحاماة ، ويلذ له العمل فى ميدان العلم وان لم يفرغ له ويطيب له الاتصال بالشباب فى حلقات الدراسة والبحث العلمى وكم كان يستهويه هذا العمل ، وقد سمعت منه أنه كان يفضل لو كان مديرا للجامعة بدلا من أن يكون وزيرا ، ويظل على اتصاله بالجريدة يكتب اليها بين الحين والحين وكان قد بدأ كتاباته على صفحاتها منذ ظهورها أثناء دراسته فى مدرسة الحقوق ،وكان لطفى السيد رئيس تحريرها يفسح من صفحاتها للشباب — وما كان أعظم سرورى — كما يقول — يوم ظهر لى أول مقال فيها ، لم يكن مقالا سياسيا، ولكنه كان عن حرية المرأة وقد أبدى لطفى باشا تقديره لأسلوبى ولطريقة تفكيرى ، فزاد ذلك من تشجيعى وجعلنى أنشر فى الجريدة ما أكتبه ،وكنت أتلقى من زملائى وأخواتى من عبارات التشجيع ما زادنى اقبالا على الكتابة والنشر . على أن زملائى الذين كانوا يتعصبون للقديم رأوا فى ميلى لحرية المرأة ولتعليمها ولرفع حجابها ما جعلهم ينظرون الى آرائى نظرة انكار ، كما أنكروا على أن أكتب فى الجريدة ولا أكتب فى غيرها من الصحف ،ولعلهم لم يعرفوا أننى حاولت قبل ظهور الجريدة أن أكتب فى المؤيد .

ويقول فى هذا الصدد انه كان فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره « وكانت نفسى قد هوت الكتابة فى الصحف ، اعتزازا من شبابى بالقدرة على ذلك ، وكنت متأثرا بطريقة الشيخ محمد عبده وأسلوبه ، فبدأت أكتب مقالات ثم أراجعها ، لكن نفسى لم تطاوعنى على أن أرسلها الى الصحف مخافة ألا تقدرها قدرها الحق ولا تنشرها ، فلما اطمأننت الى احدى هذه المقالات ، وخلتها تضاهى مقالات الشيخ محمد عبده ، نضوت عنى ترددى وأرسلت بالمقال الى جريدة المؤيد ، ولم أفكر فى الذهاب بنفسى الى الجريدة ، أو مقابلة الشيخ على يوسف صاحبها ورئيس تحريرها ، ولشد ما كان عجبى حين رأيت هذا المقال لا ينشر ، فى حين كان ينشر غيره مما أراه دونه بمراحل ، عند ذلك عولت على الاكتفاء بالكتابة لنفسى وعلى ألا أبعث الى الصحف شيئا » .

« وانه ليخيل الى أنى لو كنت ذهبت بنفسى ودفعت المقال الى صاحب المؤيد أو أحد محرريه ، لوجدت منهم تشجيعا أو توجيها ، لكننى كبر على نفسى أن أقف هذا الموقف ، أو أن أجعل لأحد حكما على ما أكتب قد لا يعجبنى ، وهذا أثر من آثار ما جبلت عليه منذ نشأتى من أنفة وحياء ، أنفة عن أن يكون لغيرى حكم على ، وحياء من أن أطلب الى غيرى شيئا كائنا ما كان » .

وحين تحتجب الجريدة عام ١٩١٥ ويعز على كتابها من الشباب أن تطوى صحيفتهم أو أن تقف الرقابة العسكرية حائلا دون أقلامهم ،فيتفق جميعهم : هيكل ومصطفى عبد الرازق ، وطه حسين ، ومنصور فهمى ، مع الأستاذ عبد الحميد حمدى على تحرير جريدته « السفور » ووضعوا لذلك عقدا أن يكون عبد الحميد حمدى هو المسئول عن ادارة السفور له مكسبها

وعليه خسارتها ، على أن يتناوب كل منهم كتابة مقال لكل عدد فاذا أخلف جوزى بدفع مبلغ من المال » وصدرت السفور أسبوعية أدبية اجتماعية لا شأن لها بالسياسة وغدت بعد قليل ندوة القلم لهذا الجيل الناشيء من الكتاب .

ولا يقف هيكل على السفور وحدها كما كان فى الجريدة بل يكتب مقالات عن « القدرية والجبرية » ينشرها فى المقتطف عام ١٩١٧ ، ويبدأ فى تأليف كتابه « جان جاك روسو » وتمضى به الحياة طوال سنى الحرب بين المحاماة والكتابة والتأليف والقاء المحاضرات فى الجامعة القديمة ، وتنتهى الحرب ، وتنفجر البلاد فى ثورة عنيفة طلبا للاستقلال ويتكون الوفد المصرى صورة لاجماع الأمة ، ويرى هؤلاء الشباب ــ وكانوا قد ألفوا حزبا أطلقوا عليه اسم « الحزب الديمقراطى » أن يكون لهم ممثل فى الوفد «ولم يقبل الوفد المصرى أن يشرك أحدا منهم فى عضويته » .

وتتوالى الأحداث سريعا،وفشل الوفد المصرى فى ولوج مؤتمر الصلح فى باريس ، وتميل انجلترا الى حل المسألة المصرية حلا يتفق مع مصالحها ، فيصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وتتكون لجنة الدستور ، ويتكون حزب الأحرار الدستوريين برئاسة « عدلى يكن » ، وتصدر السياسة لسان حاله ويتولى تحريرها « الدكتور محمد حسين هيكل » فينتقل من صفوف المحاماة الى صفوف الصحفيين ويكون لطفى السيد أول من ينقل اليه خبر اختياره رئيسا لتحرير السياسة ، ولعله هو الذى رشحه لهذا العمل وان لم يكن لطفى السيد من أعضاء الحزب لأنه كان قد عاد الى وظيفته مديرا لدار الكتب ولكنه « كان من رجاله وكان وثيق الصلة بعدلى باشا وبمن يؤلفون الحزب ، وكان هو الذى يحرر خطاب الافتتاح الذى يلقيه عدلى باشا » ولم يكن هيكل وثيق الصلة «بكثير من هؤلاء الاشخاص الذين ينضمون للحزب » فما كان من هؤلاء الرجال الذين يحسنون الاتصال بالناس وما كان يسعى الى معرفة كبير أو عظيم يأمل من ورائه نفعا ولعل ذلك كان من أثر ما جبل عليه من أنفة وحياء . صاحباه طوال حياته فلو لم يرشحه لطفى السيد ــ كما نعتقد ــ لهذا العمل لما رشحه له الآخرون ، اعتقادا منا بأن الذاتية مازالت تحكم عواطفنا واتجاهاتنا وتعلو أحيانا على الصالح العام ، وان كان يروى أن جبرائيل بك تقلا صاحب جريدة الأهرام عرض عليه أن يكون « رئيسا لتحرير الأهرام بمثل الشروط التى يعرضها على رجال الحزب الجديد»، ولعل هذا العرض بدوره لم تكن تحكمه غير الذاتية، حرصا منه ألا يكون للسياسة بكتابها وما تستند اليه من قوة رجالها تأثير على كيان الأهرام المادى أو الأدبى .

ويودع هيكل حياة المحاماة ، بعد عشر سنوات حافلة بطموح الشباب ، الى حياة الصحافة والسياسة الحزبية فقد أصبح عضوا فى حزب الأحرار الدستوريين الى جانب رياسته لتحرير صحيفة الحزب ولسان حاله «السياسة» .

ولم يكن هيكل غريبا على هذه الحياة الجديدة ، أو على هذا الوسط ، فقد نشأ فى مدرسة الجريدة ، لسان حال حزب الأمة حزب المعتدلين ــ وورثت السياسة أسلوب الجريدة ومنطقها فى الجدل السياسى،وورث حزب الأحرار الدستوريين حزب الأمة فى اعتداله ، بل انه ليكاد يمثل الطبقة التى ألفت حزب الأمة من قبل .

وكانت السياسة كما كانت الجريدة «مدرسة للفكر السياسي والأدبي ، وحملت كما حملت الجريدة من قبل راية التجديد ، ووقفت تدافع عن حرية الفكر . وكان لها في ميدان الدفاع عن حرية الفكر مواقف يذكرها تاريخ مصر القريب ، لعل أبرزها موقفها من كتاب الاسلام وأصول الحكم، « وقد ظن قوم يومئذ ـ كما يروى هيكل ـ أننا كنا في هذا متأثرين بصداقتنا للشيخ على عبد الرازق ولأسرة عبد الرازق كلها ، وربما كان في هذا القول جانب من الصدق ، ولكن هذا الجانب لم يكن هو الحافز الأقوى لنا ، بل كان اعتدادنا برأينا ، وحرصنا على احترام الدستور ، ومخافتنا أن يجر التهاون في هذا الاحترام الى نتائج محزنة تعوق تقدم البلاد ، هو الحافزالأقوى وهو الدافع لشدتنا في حملتنا شدة كنا نرجو أن ترد الأمور الى نصابها الحق ، فنصون للمفكرين وأولى الرأى حريتهم وكرامتهم » وانه ليقول في هذا الصدد : « فأنا ـ كما قدمت ـ أومن بحرية الرأى عن عقيدة ويقين ، ولهذا أحترم كل رأى وان خالف رأيى ، كما أطالب غيرى بأن يحترم رأيى ، وكما أننى أرى حقا مقدسا لى أن أعارض بشدة بل بعنف ما أراه ليس حقا ، أعترف لغيرى بحقه في معارضة رأيى اذا هو لم يقتنع به واقتنع بنقيضه ، هذه عقيدة نشأت عليها ، وآمنت ولازالت أومن بها » .

وضمت السياسة باقة من رجال الفكر ازدهت بأقلامهم صفحاتها ، وحين ضاقت عن أن تسع نفثات أقلامهم صدرت السياسة الأسبوعية في ابريل ١٩٢٦ لتحمل عنها هذا العبء ، عبء الثقافة والفكر ، وأصبحت السياسة الأسبوعية بعد قليل من صدورها مدرسة الفكر المعاصر والاتجاهات الفكرية الجديدة ، وفيها تألق قلم هيكل ، كما تألق قلم طه حسين والمازنى والبشرى وعبد الله عنان ، ومحمود عزمى ، وتوفيق دياب ، ونشأ في رحابها جيل جديد من الكتاب والصحفيين أخذ ينمو ويمتد طوال صدورها منهم زكى عبدالقادر وحافظ محمود وعلى أدهم وزكى نجيب محمود وفتحى رضوان وغيرهم ممن أصبح لهم شأن في تطور الحياة الفكرية في البلاد . وعلى صفحاتها ظهر ـ حديث الأربعاء ـ لطه حسين وفصول في أوقات الفراغ » و « ثورة الأدب » لهيكل كما نشر كتاب « حياة محمد » قبل أن يصدر للقراء، وطلعت على القراء بلون جديد من الأدب لم يكن له من قبل نظير حين أخذ الشيخ عبد العزيز البشرى ينشر صورا تحليلية لبعض الشخصيات المعاصرة تحت عنوان « في المرآة » لقيت اعجاب القراء وتقدير الدوائر الأدبية لما اتسمت به من خفة الروح ورصانة الأسلوب وجزالته ودقة التعبير وسلامته وعمق التحليل النفسى ، وبلغ من افتتان القراءة بصور «في المرآة» أن عاد الدكتور هيكل الى كتابة صور جديدة تحت هذا العنوان بعد ذلك بعشر سنوات ، حين احتجبت السياسة ، ولم يعد غير السياسة الأسبوعية ، ولكنه لم يكن يوقعها باسمه ، ولعل هذا بعض ما لم يعرفه القراء لهيكل . وكنت يومها قد بدأت باكورة كتاباتى على صفحاتها .

وكانت السياسة الأسبوعية آخر ما اتصل بحياة هيكل في ميدان الصحافة فقد اختير وزيرا للدولة في ٣١ ديسمبر ١٩٣٧ ، بعد أن سلخ في حياة الصحافة خمسة عشر عاما .

ويبدأ الدكتور هيكل بانتقاله من الصحافة الى الوزارة طورا جديدا من أطوار حياته الخصبة

النامية » « وكانت هذه هى المرة الثالثة التى يتغير فيها اتجاه حياتى تغيرا جوهريا – كما يقول – منذ بدأت حياتى العملية . اشتغلت بالمحاماة من شهر ديسمبر سنة ١٩١٢ ، واشتغلت بالصحافة من شهر أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وكنت أكتب فى الصحف وأؤلف الكتب منذ كنت طالبا بالحقوق . وها أنذا أبدأ حياة جديدة هى حياة الوزير ، وأبدأها وزير دولة فى وزارة الداخلية » ويلى وزارة المعارف أقرب الوزارات الى مشربه واستعداده بعد ذلك، بعد أن كان الاتجاه الى تعيينه وزيرا للداخلية ، ليلى أستاذه لطفى السيد وزارة المعارف حيث كان وزيرا لها فى وزارة محمد محمود الأولى سنة ١٩٢٨ اذ يرى حين يعرض عليه محمد محمود وزارة الداخلية بحضور استاذه لطفى السيد أنه أقدر على تولى وزارة المعارف منه على تولى شئون وزارة الداخلية « أما لطفى باشا فانه أصلح لتولى شئون وزارة الداخلية لفضله ومكانته وتلطف استاذى لطفى باشا فنزل لى عن وزارة المعارف وقبل هو أن يتولى وزارة الداخلية » .

وفى وزارة المعارف يضع الدكتور هيكل قواعد اللامركزية بانشاء المناطق التعليمية فانه يؤمن بهذا النظام ويعتقد أن الخير كل الخير فى أن تكون الادارة الاقليمية والهيئات النيابية المحلية هى صاحبة الشأن فى أمور الاقليم كله ، فليبدأ بتنفيذ ذلك فى وزارة المعارف .

وبقى الدكتور هيكل يتولى وزارة المعارف فى كل مرة يدخل فيها الوزارة حتى تركها الى رئاسة مجلس الشيوخ فى ١٩ يناير ١٩٤٥ ، ويبقى فى رئاسته على كثرة ما توالى على البلاد من وزارات، حتى دعى مصطفى النحاس لتأليف الوزارة بعد فوز حزبه بالأغلبية الساحقة فاستصدر بعد شهور من توليه الحكم مرسوما بتعيين على زكى العرابى رئيسا للمجلس واسقاط العضوية عن آخرين فى ١٧ يونية ١٩٥٠ .

«وتمضى الأيام سراعا وحال البلاد تزداد سوءا وارتباكا وتتوالى على الحكم وزارات عديدة بعد اقالة حكومة الوفد فى يناير ١٩٥٢ تنتهى بثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢،وتطوى صفحة لتفتح صفحة جديدة فى تاريخ مصر » .

وثوى هيكل الى داره والى كتبه وقراءته وتآليفه حتى وافاه الأجل صباح يوم السبت الثامن من ديسمبر ١٩٥٦ بعد حياة نظيفة لم يؤخذ عليه فيها شىء حين أخذ الساسة بأخطاء الماضى وكان فى شهادته بمحكمة الثورة عفا ونزيها وكبيرا ، كبيرا كما كان طول حياته .

آثاره الفكرية :

كثيرا ماتجور أعباء الوظائف العامة على انتاج المفكر ودراساته ، حيث تلتهم وقته فلا تدع منه ما يكفى حاجته للدراسة والانتاج الفكرى ، فاذا كان العمل فى ميدان السياسة أو الادارة كان أشد التهاما لوقت المفكر من عمل يتصل بفكره يوفق فيه بين طبيعة العمل وطبيعة الدراسة والانتاج الفكرى .

وعاقت الوزارة كما عاق العمل السياسى انتاج هيكل ، فلم يخصب الا فى السنوات التى نأى فيها عن الوظائف العامة ، أو تخفف من عمله السياسى. وكتب أعظم مؤلفاته فى السنوات التى بعد فيها عن الحكم وأعبائه ، كتب « زينب » فى باريس ولندن وجنيف حين كان يخلو من أعباء الدراسة للدكتوراه فى جامعة السوربون ، وكتب «جان جاك روسو» أثناء اشتغاله بالمحاماة ، حيث يملك أن يقسم وقته

بين الدراسة والعمل ، فلم تعقه المحاماة عن كتابته او عن موافاة الصحف والمجلات ببحوثه ومقالاته، وكتب دراساته الاسلامية ومذكراته السياسية فى الأوقات التى ابتعد فيها عن مقاعد الحكم كما كتب الجزء الثانى من مذكراته السياسية بعد أن ترك رياسة مجلس الشيوخ و « هكذا خلقت » « فى الفترة الأخيرة من حياته حين انقطع عن العمل السياسى . وكان يزمع أن يؤرخ للخليفتين الأخيرين « عثمان وعلى » يكمل بهما سلسلة دراساته الاسلامية ، وبدأ فعلا فى تدوين حياة عثمان وكتب بعض فصولها ولم يتمها ، كما بدأ فى كتابة الجزء الثالث من « مذكرات فى السياسة المصرية » يؤرخ فيه للمفاوضات المصرية الانجليزية ولمسألة فلسطين والجامعة العربية ، وللحياة النيابية فى مصر ومراسيم ١٧ يونية سنة ١٩٥٠ ، ولوفد مصر فى مجلس الأمن وفى الأمم المتحدة وللاتحاد البرلمانى الدولى الى غير ذلك مما يتناول علاقات مصر الخارجية ، وكتب من فصول هذا الجزء ، الفصلين الخاصين بمسألتى فلسطين والجامعة العربية ، ولم تتمهل به الحياة حتى يتم ما نوى ، ولو امتد به الأجل سنوات أخر لرأينا من انتاجه وقد فرغ له الكثير . فقد ظل يمتشق القلم حتى النهاية ، وكان آخر ما كتب مقال نشرته الأخبار قبل وفاته بيوم أو يومين على ما أذكر .

ولعل الكتابة عنده لم تكن أكثر من هواية ولعله لا يفكر ابدا أن يتخذها حرفة ولو لم يدخل الصحافة من باب الحزبية والسياسة ما دخلها قط، فما كانت الصحافة غاية حياته بل كانت وسيلة الى غاية هى أن يذود بقلمه عما يعتقده حقا وأن يقف بهذا القلم الى جانب من يدينون بعقيدته ويؤمنون بمبادئه وحين ولج ميدان التاريخ الاسلامى ولجه دفاعا عن الاسلام والعقيدة الاسلامية أمام حركة التبشير التى اشتدت وأثارت الرأى العام فى مصر فى أوائل العقد الثالث من هذا القرن . وحين يحترف المحاماة فلا يتركها الا لميدان الصحافة السياسية ، نرى المازنى يهجر التعليم الى حرفة القلم ونرى العقاد يترك الوظيفة الى العمل فى الصحافة ، وان غزت الصحافة لديهم جميعا سبيل القلم الى النشر والاتصال بالجماهير .

ولعله لم يكتب شيئا الا ودفعته الهواية اليه ، فما كتب « زينب » الا بدافع الحنين الى صور ريفه الحبيب ، وبدافع النداء الخفى الذى يكمن فى أعماق كل كاتب الى الكتابة . وحين نشرت « زينب » لأول مرة عام ١٩١٤ نشرت على أنها بقلم « مصرى فلاح » خشية من أن تجنى صفة الكاتب القصصى على اسم المحامى رغم أنه كان فخورا بها حين كتابتها وبعد اتمامها معتقدا أنى فتحت بها فى الأدب المصرى فتحا جديدا .

ولعل هذا كان بعض عناء ذلك الجيل من حرفة الكتابة أو احتراف الأدب ، أما أن يكون الأدب هواية ومتاعا فهذا شىء آخر لا يضير صاحبه .

ولعله لم يصدر فيما كتب الا عن ذلك النداء الخفى الذى يحمل الأديب أو الفنان على التعبير عن فكره وكانت الصحافة وسيلته الى هذا التعبير، وما كان يعتقد حتى عام ١٩٣٣ أنه كتب شيئا رغم اعتزازه « بزينب » و «جان جاك روسو » فنراه يقول فى ملحق السياسة (يونيه ١٩٣٣) :

« ثم ماذا ترانى يا صديقى أنتجت ، دعك من فصول يومية تكتب فى الصحف فأنت

أعرف الناس بتفاهة ما ينفق من مجهود فى هذه الفصول ، دعك من العمل فى حزب سياسى فأنت أدرى بالسياسة المصرية ، ماهى وما مبلغ الجهد فيها »

« دعك من هذين وانظر واياى فيما أنتجت ، أنه لاشىء ، أولا يكاد يكون شيئا ، وأنا رجل بينى وبين الخامسة والأربعين شهور » .

فاذا عدنا الى تلك الفترة من حياته التى انتقل فيها الى الصحافة نراه لا يصدر من الكتب الا ما كتبه من قبل للصحف والمجلات وخاصة «السياسة» و «السياسة الأسبوعية» .

وأول هذه الكتب « فى أوقات الفراغ : مجموعة رسائل أدبية تاريخية أخلاقية فلسفية » نشرت عام ١٩٢٥ ولا ندرى أكان هذا التذييل من اختياره أم اختيار الناشر ويضم هذا الكتاب الذى يدل عنوانه على الهواية أكثر مما يدل على القصد أو الاحتراف مجموعة من المقالات نشرت فى الجريدة والسفور والسياسة والاهرام فيما بين عام ١٩١١ وعام ١٩٢٥ لمناسبات أو أفكار نبتت فى وقتها والثانى كتاب «تراجم مصرية وغربية» صدر عام ١٩٢٩ ونشر فى السياسة الأسبوعية حين كانت تنشر فيها فصول رجال التاريخ الحديث فى مصر ما عدا « ترجمة محمود سليمان باشا فقد كتبت لمناسبة وفاته ، وترجمة عبد الخالق ثروت باشا فقد كتبت ولم تنشر فى غير هذا الكتاب » و « خلا ترجمة لكيلوباتره كتبت قبل أن تكتب هذه التراجم جميعا » ويتكون من هذه التراجم المصرية القسم الأول من الكتاب أما القسم الثانى « فيتناول ترجمة بتهوفن ، وتين ، وشكسبير وشلى من كبار رجال الغرب وهؤلاء انما ترجمت لهم لمناسبات خاصة ، ولأنى أحببتهم منذ زمان طويل حبا جما » .

وحين يقوم برحلة قصيرة للسودان يكتب عنها بعنوان « عشرة أيام فى السودان » كتابا ينشر عام ١٩٢٧ ، يقول فى مقدمته : « ليس فى هذا الكتاب شىء أكثر مما يمكن أن يشتمله عنوانه فهو مجموعة ملاحظات ومعلومات جمعتها أثناء رحلتنا القصيرة بالسودان » .

وفى عام ١٩٣١ يصدر كتابا بعنوان « ولدى » وصفا لسياحة قام بها فى أوربا مع زوجه سلوانا من ثكلها فى وحيدها حينذاك وبكرهما « مدحت» .

وبعد ذلك بعامين ينشر «ثورة الأدب» مجموعة فصول نشرت من قبل كما هى بعنوانها ، وأخرى نشرت ولم يغير منها الا عنوانها ، « وقد اخترت له » ثورة الأدب عنوانا بعد أن جال بخاطرى قبيل طبعه أن أجعل عنوانه « نحو الأدب القومى » لأن فصوله الأولى جميعا لا تتحدث عن الأدب القومى ، وانما تتحدث عن هذه الثورات المتصلة التى شهدها نصف القرن الأخير فى شئون الكتابة والأدب ونصف المجهود المتصل الذى قام به أصحاب المذاهب المختلفة فى اقامة الأدب العربى الجديد » .

ويتجه الى دراساته الاسلامية ، فيعود الى البحث المتكامل بعد أن انقطع عنه فترة اشتغاله بالصحافة منذ كتب «جان جاك روسو» وكان ذلك ــ كما يقول ــ أثر حادث اهتزت له البلاد ذلك أن نشاط المبشرين بالمسيحية ظهر فجأة فى ثوب مخوف وتناقلت الصحف يومئذ أن الجامعة الأمريكية بالقاهرة هى مصدر هذه الدعايات التبشيرية وأن بها أركان الحرب التى تنظم هذه الدعايات ، وكان غريبا حقا هذا النشاط الذى أبداه المبشرون ، والذى لم يسمع بمثله من عشرات السنين فقد امتد هذا النشاط من القاهرة الى

بورسعيد والى غيرها من المدن والأقاليم وقد تحدثت الصحف عن وسائل الاغراء التى يلجأ اليها المبشرون لحمل السذج على اعتناق المسيحية ولتنصير الأطفال والأبرياء من أبناء المسلمين الفقراء .. ولقد كنت من أشد الأعضاء تحمسا لمقاومة هذا التبشير اقتناعا منى بأن هذه الحركة يقصد بها الى اضعاف ما فى النفوس من ثقة بدين الدولة ولما تنطوى عليه من قصد سياسى هو اضعاف معنويات الشعب باضعاف عقيدته ، وان لم يبلغ هذا الاضعاف حد ارتداده عن دينه الى دين آخر ، هذا الى أننى رأيت فى هذه الحركة مقاومة لما أومن به من حرية الرأى ، فاغراء الناس بالوسائل المادية لحملهم على تغيير مذهبهم أو رأيهم هو محاربة دنيئة لهذه الحرية، وهو استغلال للضعف الانسانى كاستغلال المرابى حاجة مدينه ليقرضه بالربا الفاحش ، والتبشير فضلا عن هذا مناف لقواعد الخلق ، مادام يتم فى الظلام، ولا يصارح القائم به الناس برأيه ليناقشوه هذا الرأى ، وليبينوا ما فيه من زيف وفساد ..

« كان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفى منها أن دفعنى للتفكير فى مقاومتها بالطريقة المثلى التى يجب أن تقاوم بها ورأيت أن هذه الطريقة المثلى توجب على أن أبحث حياة صاحب الرسالة الاسلامية ومبادئه بحثا علميا ، وأن أعرضه على الناس عرضا يشترك فى تقديره المسلم وغير المسلم » .

ثم يقول انه سأل عن « كتب أوربية كتبت عن حياة صاحب الرسالة ، فذكر أحدهم كتاب الكاتب الفرنسى « اميل درمنجم » عن « حياة محمد »ولم ألبث أن اقتنيته وعكفت على مطالعته حتى فرغت منه ثم بدأت أنشر عنه بحثا فى السياسة الأسبوعية فلما ظهر العدد الأول تخاطفه الناس تخاطفا حتى لقد طلب الباعة ضعف العدد الذى طبعناه ،فشجعنى ذلك على المضى فى بحثى وعلى الاستزادة منه .. وكذلك كان هذا الحادث الذى روعت له مصر ، حادث النشاط التبشيرى ، سبب متابعتى خلال أربع سنوات تمحيص حياة النبى العربى وتعاليمه، لتصدر بعد ذلك فى كتاب أعتز به أيما اعتزاز ، ولا أزال أشعر حتى اليوم باللذة كلما ذكرت بحوثى فيه ، أقصد : حياة محمد » .

وظهر « حياة محمد » بعد أن نشرت فصوله تباعا فى السياسة الأسبوعية ، لأول مرة عام ١٩٣٥ وبعده بعامين أصدر « فى منزل الوحى » بعد أن أدى فريضة الحج عام ١٩٣٦ ثم ، الصديق أبو بكر «عام ١٩٤٥ » والفاروق عمر ، فى جزءين صدر أولهما «عام ١٩٤٤ والثانى عام ١٩٤٥ » .

وانصرف عن دراساته الأسلامية وان لم يهملها الى تدوين « مذكرات فى السياسة المصرية » وأصدر الجزء الأول منها عام ١٩٥١ والثانى عام ١٩٥٣ وعاد اليها مرة أخرى ليكتب فصولا لم تتم من حياة الخليفة عثمان ، صدرت بعد وفاته بعنوان عثمان بن عفان كما كتب بعض فصول الجزء الثالث من مذكراته السياسية وفصولا أخرى عن فلسفة غاندى لم تنشر بعد .

وفى تلك السنوات الأخيرة التى هدأ فيها الى نفسه وبحوثه والتى لم تطل أكثر من ثلاث سنوات كتب قصة « هكذا خلقت » ، نشرت قبل وفاته بعام .

وعكف أصغر بنيه الأستاذ أحمد هيكل « الملحق بالجامعة العربية على جمع آثاره فنشر « عثمان بن عفان » و « الشرق الجديد » و « الامبراطورية الاسلامية والأماكن المقدسة »

و « الايمان والعلم والفلسفة » وهو بصـــدد نشر « يوميات باريس » وما دونه من مذكرات سياسية عدا مجموعة قصص بعنوان « أساطير الأولــين » وغير ذلك من بحوثه المتناثرة ما نشرته الصحف من قبل ووجب جمعه فى كتاب وما كتب ولم ينشر.

جاذبية التاريخ :

لم يكن عسيرا على كاتب زينب « أن يلــج ميدان السيرة التاريخية ، فالسيرة قصــة حيــاة انسان فرد ترك من الأثر فى الحياة ما جذب اليه التاريخ ، وهى أحفل من التاريخ العام بالعواطف الزاخرة الجياشة . والأحاسيس النابضة ، لأنهــا تعرض من ســيرة الفـــرد لجــوانب حيـــاته المختلفــة . حتى تتجــلى مقــومات شــخصيته وتبرز معالم حياته ، لتفصح عن سر نبوغه وتفرده، اذ لا تحفل السير الا بكل نابغة فريد ، والســيرة أكثر نبضا بالحياة من التاريخ ففيها نلمس الانسان مباشرة ،أما فى التاريخ فاننا نلمس الانسان عن طريق الأحداث التاريخية التى أحاطت به ، فمهما قيل من أن الانسان هو المؤثر الحقيقى فى مجــرى التاريخ ، فان المجتمع هو الذى يبرز التـــأثير التاريخى للفرد ويتفاعل معه ، وهنا تتخــذ من الأحداث محورا للتاريخ ، أما فى السيرة فنتخذ من الانسان الفرد محورا تؤلف حواليه الأحداث التى أحاطت به والتى وقعت منه مباشرة ، فهى أقرب الى القصة من التاريخ .

فالقصة كالسيرة تعرض للمشكلة فى حيــاة الانسان أو للصورة فى مجتمع يعيشه ، وتبــدو المشكلة فى القصة معادلة تماما للأثر التاريخى الذى يجذب التاريخ اليه ، هذا الأثر التاريخى الذى ينبت من خلال الأحداث التى تمر بصاحب السيرة تؤثر فيه ويؤثر فيها ، تجذبه اليها ويتفاعل معها ، كما تجذب المشكلة بطل القصة الى التفاعل مع الموقف الذى يواجهه فيؤثر فى سير المشكلة ونموها لتصل الى القمة أو العقدة فى القصة فاذا كانت القصة من الأدب الواقعى فان الموقف الذى يؤثر فى ســير المشكلة هو الصورة التى يفرضها المجتمع على بطل القصة ، وكل ما هناك من فرق بين المشكلة فى السيرة ، والمشكلة فى القصة ، أن المشـــكلة فى السيرة تتجه الى الخـــارج بمعنى أنها تعرض لصورة المجتمع بالتأثير الايجابى الذى يفرضـــه أو يقوم به أو يحاوله بطل السيرة ، بينما تتجـــه فى القصة الى الداخل بمعنى أنها تعرض لتـــأثير الصورة الاجتماعية على المشكلة التى يواجهها بطل القصة ، اذ أنها تفرض نفسها عليه وتسوقه الى قمة الحدث الدرامى أو العقدة التى ينشـــدها مؤلف القصة .

وقد يبدو يسيرا على الأديب القصاص أن يكتب سيرة تاريخية ، وان كان من العسير أن يتحرر من لمسة الفن والتماسك الذى تفرضه « حبكة القصة» فيغرق فى الافتراض أو التخيل أو خلق المواقف التى تنأى به عن الدقة التاريخية ، فاذا حـــاول مؤرخ السيرة أن يكتب قصة تاريخية بعد به المنطق التاريخى عن الحبكة القصصية وعدت قصته صورة باهتة لواقع الحياة وان كان من اليسير عليه أن يكتب قصة اجتماعية أو نفسية .

وأعظم مؤرخى السير هم الذين يملكون موهبة الأديب وملكة الفنان فمازالت السيرة قصة انسانية تعج بالأحاسيس والانفعالات والمواقف والأحداث التى يقتنصها كاتب السيرة ليضفى عليها الحيوية ويبعث فيها الحياة .

ولا ندرى الى أى حد تتحكم الموهبة القصصية فى المؤرخ أو فى القصاص فتسوق كلا منهما الى

المنهج الذى يرتضيه وينفرد به ـ مؤرخا أو قصاصا ـ وان كان من الممكن أن يجمع الانسان بين الموهبتين فيكون مؤرخ سيرة وكاتب قصة ، وان كانت قدرة لا ينفرد بها الا من أوفى على القمة من الثقافة وأوتى موهبة الفنان ولمسة الأديب .

وكان الدكتور هيكل ممن تفرد بالميزتين ميزة المؤرخ العالم وميزة الأديب الفنان ، فكانت سيرة جان جاك روسو التى كتبها فى مطلع حياته بعد أن كتب « زينب » بسبع سنوات خليطا ولا أقول مزيجا من التاريخ والأدب يقف فيها الأثر الفنى لروسو فى ناحية وسيرته فى ناحية أخرى فاحتلت « هلويز الجديدة » واحتل اميل أكثر صفحات الكتاب وان أفرد لهما الجزء الثانى منه وقصر الجزء الأول على سيرة روسو .

وكانت سيرة ـ جان جاك روسو ـ أول محاولة له يلج بها مضمار البحث التاريخى وان أعوزها المزج الفنى الذى يصل فيه المؤرخ الى ربط أحداث السيرة بالأثر التاريخى الذى يخلد به صاحب السيرة ، ويدفع المؤرخ اليه ، والأثر التاريخى لروسو أثر فكرى يشير اليه هيكل فيما حبب اليه الكتابة عنه بأنه « فكرة سامية قائمة على أساسين متينين من العدالة الاجتماعية والايمان بالعمل » . فاذا استطاع المؤرخ أن يمزج الواقعة التاريخية بالفكرة التى تحفزها وتدفعها ، أو يبرز ما للواقعة التاريخية من أثر على الفكرة لبلغ الغاية من كتابة السيرة الحديثة . والفكرة عند روسو نتاج حياة قلقة مريضة بأحداثها المضطربة ينازعها ذكاء فطرى ثائر متوثب ، يوقعه فى التناقض مما لا نستطيع تبينه مالم نربط بين الحادثة والأثر ونمزج بين الفكرة والواقعة . وهو عمل عسير يفر منه كتاب السير الأدبية أو الفنية الى أحداث السيرة فيقيمون بناءها القصصى على أساس النمو التاريخى سائرين بها مع الزمن من بدايته الى نهايته معا ، ثم يثنون بعرض الأثر الفنى قائما بذاته مما يضيع معه الحافز النفسى ، وما للاحداث التى مرت به من أثر عليه . وسنرى أن هيكل ، قد تدارك ذلك فيما كتب بعد من سير أوفى بها على القمة من الكتابة التاريخية .

ثم ارتد الى القصة فى محاولة لخلق أدب قومى يمزج التاريخ بالأدب ويقص من خبر تلك المحاولة، ما أشارت به عليه فتاة كندية عرفها فى باريس عام ١٩١٠ ، يوم كان يكتب « زينب » قالت له :

ـ « كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر فى صورة قصصية كما صنع سير والترسكوت بتاريخ انجلترا ، اننى وان لم أعرف مصر أشعر بأن فيها شيئا كثيرا جميلا ، وأن تاريخها وآثارها جديران بالكشف عنهما وتقريبهما للناس فى الصورة القصصية المحببة الى النفس ولعلك ان فعلت تجعل اهداء أولى هذه الروايات التاريخية لى ».

وبدأ هيكل المحاولة بعد سنوات من هذا التاريخ مؤمنا بأن مافى مصر من السحر والفتنة وفى تاريخها القديم والحديث ما هو جدير بأن يكون مصدر الوحى لأدب قومى يصور ماضيها وحاضرها ما ينطبع صادقا « فى نفوس أبنائها وفى نفوس الأجانب عنها ممن يقرأون هذا الأدب فيعرفون مصر كما هى حقا ، لا مصر التى شوهت شر تشويه بالدعاية الفاسدة لغايات سياسية وغير سياسية ».

واستهواه من هذا التاريخ ماعجت به الحروب الصليبية من ملاحم وما حفل به عصرها من صور « ولكنى ـ كما يقول ـ وقفت يومئذ مترددا ، أأقدم فأبحث فأوالى البحث فأقدم للجمهور

ثمرة بحثى فى صورة من صور الأدب القومى، فاذا حركة مهاجمة عنيفة تفاجئنى من غير أن تزن بالقسط ما اليه قصدت ، متأثرة فى ذلك بخصومة سياسية أو غير سياسية .. من الخير اذن أن أبحث عن ميدان لا يعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد ، وهو بعد ميدان طريف يلذ اتخاذه مادة لأدب قومى شهى الثمرة ، خصب غاية الخصوبة ، وليكن هذا الميدان ميدان الفراعنة وآلهتهم ، ولنطلق لحرية الأدب غاية مداها فى تصوير حديث هؤلاء الآلهة ، مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرها ، موازنين بينهم وبين آلهة الاغريق الذين ألهموا من فوق الأولمب حضارة أوربا الحاضرة .

وكانت محاولة حورت من الصور التاريخية أكثر مما حورت من أحداث تألفها فى القصص بل وتقوم عليها حبكة الرواية والتماسك الفنى فى القصة ، فقد خلت تماما مما يميز القصة وغلب عليها طابع الصور التاريخية فكانت أقرب الى التاريخ منها الى القصة .

الا أن مثل هذه الصور وان كانت تصف من مشاهد التاريخ ما يغلفه الخيال بلون جذاب يضفى عليه فوق جلال التاريخ متعة الفن ، فانها فى نظر المؤرخ لا تقف سندا تاريخيا ولا تسند الى الحقيقة قدر ما تستند على الخيال ، والتاريخ حقيقة تقوم وحدها من غير طلاء حتى وان بدت شوهاء مفزعة

ولم تكن صور هيكل من حديث التاريخ وان حلقت فوق أبهائه وطافت بمحاربه ، وانما كانت من حديث الأسطورة التاريخية ، والأسطورة وان كانت نبت الخيال الا أنها صورة من صور التاريخ ، تطوف بخيال الانسان ، أكثر مما تطوف بوقائعه وأحداثه وتحكى قصة فكره ومعتقداته أكثر مما تحكى من أعماله وجهده ، فتكشف ما لعله كان حافزا للانسان فى زمنه على العمل والبناء . فما من عمل خلد عن الزمن القديم الا وكانت وراءه فكرة أو عقيدة أسطورية غلفها الخوف والرجاء فى الانسان بغلاف الحقيقة فغدت هدى نوازعه ومناط رجائه ، وأهدته أرق ما حفل به تاريخه من فكر وفن وعمل فهذه المعابد والنصب والأهرام التى تطاول الزمن خلودا على الزمن فى مصر القديمة كانت بنت الأسطورة التى أغلفت العقيدة المصرية القديمة بفكرة البعث والخلود فما قامت « صناعة النجارة والبناء فى الأصل — كما يقول البرت سميث مؤلف « تطور الانسان —

«The Evolution of Man»

الا لوقاية الجسد من البلى ، لاعتقاد الناس أن وقايتها تضمن الخلود لصاحبها ، مما أدى بالتالى الى اختراع التحنيط وفنون النحت والعمارة بل ان الذى حمل الأقدمين على امتطاء العباب كان حاجتهم الى الراتنج والبخور والأخشاب للتحنيط وصناعة التوابيت جريا وراء أمل خادع فى الخلود ، الذى ظنه قدماء المصريين منذ خمسين قرنا حقيقة واقعة بصيانة الجثة من العطب ، لاعادة الحياة الخالدة اليها بتعاويز السحر » .

ولعل اسطورة (حزام عشتروت السحرى) فى الملاحم البابلية ، ما يهدينا الى نزعة التزين والأثارة الجنسية للرداء عند المرأة ، فحين كان الناس يعيشون عرايا ، اكتشفوا فجأة أن التمنطق بالأحزمة والودع مما يزيد فى فتنة النساء وجاذبيتهن . فكانت عشتروت ربة الحب والحرب وأم الحياة جميعا عند البابليين ، اذا نزعت منطقتها وقفت حركة الخصب والتناسل حتى تعود الى لبسها ، وعرف عن حزام « أفروديت » أنه يجبر الناس على الحب.

فالأسطورة وان كانت من نبع الخيال ، الا أنها نحتت للتاريخ الحقيقة التى ينشدها المؤرخ ، فاذا

جبنا ملاحم الأسطورة ، كشفنا عن اللبنة الأولى فى بناء التاريخ .

ولعل هذه الحقيقة مما لم يراود ذهن هيكل عندما بدأ محاولاته تلك فى كتابة الصور التاريخية فما كان ينشد حقيقة تاريخية بقدر ماكان ينشد خلق أدب قومى يصل ما بين قديم مصر وحاضرها فما نستطيع « أن تتصور حديثا لا يتصل بالقديم الذى أثمره ، أو تتصور قديما لا يتطور مع الحديث وينضم اليه ،فاذا اتصل القديم بالحديث وتضامنا نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية نشيطة هى التى تقوم أساسا لكل حضارة من الحضارات، وبدونها تتداعى وتنهار ، ويضطر أهلها الى استعارة حضارة غيرهم والعيش فى كنفها » .

الا أنه حين بدأ يقص من أحاديث تلك الآلهة القديمة ، قد حفى بالتاريخ أشد الحفاوة وأخذ منه « الجهد والتدقيق فى بحثهما » ما جعله يشك فى قدرته على تدوين « حديث الآلهة » على ماكان يأمل أن يسمى الكتاب الذى يجمع بين دفتيه هذه الأساطير فضمن كتابه « فى أوقات الفراغ » حديث أبيس وحديث سميراميس « لكن هذا البحث استهوانى من بعد وعاد يجذبنى اليه بقوة زادها امعانا تكرار زيارتى للأقصر وأسوان ومشاهدة مختلف آثار الفراعنة فى وادى الملوك وفى صحارى مركز الدر وجباله الممتدة ما بين أسوان وحلفا ، واجابة لدعوة أجدادنا وآلهتهم عدت أبحث ودونت حديث ايزيس وهاتور وأفروديت » .

ولعل ما عناه هيكل « بالجهد والتدقق » هو المشقة التى يعانيها المؤرخ جريا وراء الحقيقة التاريخية ، لذلك كانت تلك المحاولة لخلق أدب قومى أقرب الى مباحث التاريخ منها الى الفن الأدبى ، فاذا جردناها من تلك الأخيلة الجميلة التى أضفاها على حديث الصحاب الذين أجرى على لسانهم تاريخ الآلهة أو « حديث الآلهة » كما كان يجب أن يسميه واذا نزعناها من قالب القصة الذى حاول عبثا أن يحكيه لكان بحثا دقيقا من مباحث التاريخ الأصيلة ، يهدينا الى ما كان لهذه الآلهة من أثر على الفكر والحضارة وسلوك الانسان ومن اليسير أن نحدد بعد ذلك الحافز النفسى الذى يجذبه الى التاريخ هاويا فى البداية يحاول أن يضفى على الأدب روعة التاريخ ويخلق من التاريخ صورة أدبية رائعة « كما صنع سير والتر سكوت بتاريخ انجلترا » ، وكما أشارت عليه به فتاته الكندية « مس شلزك كاسلز » ثم باحثا فى التاريخ يعتلى قمته بين مؤرخى التراجم والسير فى العصر الحديث، ويستن للفكر العربى منهجا للتاريخ العلمى للسيرة .

والحافز الذى يسير به فى ركاب التاريخ ـ كما نرى هو الجاذبية للعمل العظيم وليس لعبادة البطل « فى تراجم بلوتارك أو فى تصور كارليل ، فهو الحياة فى صورتها الكلية بما يضفى عليها الانسان المبدع الخلاق من معانى الحق والخير والجمال « ينزوى » فيها « رجال السيف فى أركان التاريخ أشبه الأشياء بالأشباح المخيفة وكل أثرهم أنهم كانوا فى وجود الانسانية غمامة سوداء انهمرت على سطح الأرض دما وموتا » لتغدو « ذكرى الكتاب والمفكرين أجدر من كل ذكرى سواها بالحياة والخلود ، ذلك أن الكتاب هم كلمة الحق وكلمة الحق هى روح الحياة الخالدة » فرجال القلم « من شعراء وكتاب وفلاسفة ومفكرين هم الشموس السواطع التى تضىء طريق الانسانية فى سيرها الى الكمال . ما نابليون الى جانب هوجو ؟ وما

مولتكى الى جانب جيتى ؟ وما ولنجتون الى جانب شكسبير وما أولئك الا الأجساد البائدة الى جانب الأرواح الخالدة أو لم يقل نابليون ان فخره بالقانون المدنى يعدل أضعافا مضاعفة فخره بيينا وأوسترلتز؟ وهلا نرى كل حرب تنتهى تاركة وراءها الخراب والويل ملقية عبء الاصلاح والتنظيم على عاتق العلماء والكتاب والمفكرين ؟.

ولعلنا ندعى أن « عبادة العمل العظيم » الذى يضفى على الحيـــاة كل خير وبهاء ويتوج الفكر الانسانى بجلال الحق وروعته ، قد حل عنده محل عبادة البطل « عند كارليل » وحـــددت جاذبيـــة التاريخ لديه فى عمل عظيم يعود على الانسانية بالخير ويدنو بها من الكمال لا فى عبقرية فرد قد تجنى عبقريته على الانسانية ، وان وقفت ببعضنا مبهورين بها أمام عبادة البطل فى التاريخ أيا كان الأثر الذى يخلفه .

هذا هو الحافز الذى يكون جاذبية للتاريخ يضفى عليها من القوة والأصالة ما يتصل بالحافز من احساس ومشاعر مجردة ننأى بها عن الذاتية ونقف بها عند محراب الحق فى الحكم على الأثر التاريخى ، فلا تعدو العاطفة على الحكم الصحيح ، ذلك ان الأحاسيس والمشاعر تقوم على حق أبلج دانت به الانسانية وأخذ به التاريخ ولم يعدهناك ما ينقضه الا أن يختلف تفسير ضمير المؤرخين للحق وحوافزه فى ضمير الانسان الذى أبدع هذا الأثر التاريخى .

هذه الأحاسيس والمشاعر التى تتصل بالحافز والجاذبية التاريخية هى التى جعلت هيكل فى بعض جولاته فى ربوع الشام يقف عند معرة النعمـــان و « تمثل لى فى تلك الساعة هذا الشيخ أبو العلاء ، وارتسم أمامى تمثاله . وفصلت أمام بصيرتى آدابه وحكمته وفلسفته ، وألفيت قطعة من شبابى ترتسم أمامى بقوة ووضوح وشعرت كأن هذا البلد الذى لم أره من قبل قط يحتوى شيئا من حياتى ، اذ ذاك سألت نفسى اذا كان هـــذا شـــأنى ولم أدرس أبا العلاء دراســـة بحث ممحص ، ولم أقرأ عنه قراءة مفصلة غير كتاب صديقى الدكتور طه حسين ــ ذكرى أبى العلاء ــ فماذا تكون الحال بالقياس الى من يدرسون تاريخ أسلافنا جميعا فى سائر البلاد التى تتكلم العربية دراسة تصل بين نفوسهم وهؤلاء الأسلاف وعصرهم وحضارتهم ،ألا يكون ذلك مصدر الهام لهم أصدق الالهام ، ووحى فى التاريخ والأدب أسمى ما يكون الوحى والالهـــام يكون ولا ريب أسمى كلما كان أوثق اتصـــالا بوطن الانسان وقومه » .

وتكون الجاذبية التاريخية أشد ما تكون قوة ، اذ ما اتصلت أسبابها بنفوسنا أكمل اتصال ، فكلما ازداد الانسان بما حوله من صور الحياة امتزاجا . ازداد بهذا الامتزاج حياة ، وازداد بذلك تجددا ، واذا كان حسنا وواجبا أن يمتزج الانسان بالماضى وأن يجد هذا الماضى طى الكتب ، فأحسن منه أن يمتزج بالحاضر فى كل مظاهر هذا الحاضر ليجمع بين المـــاضى والحاضر كاملين ، وليجـــدد بذلك للمستقبل صورا أقوى ما فيها من المظـــاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد . وأنت أكثر ماتكون قوة على الامتزاج بالحاضر والماضى وعلى التجديد فيهما تجديدا تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة اذا كان هذا الماضى ماضى بلادك ، وكان هذا الحاضر حاضر بلادك نفسها بما فيها من حياة وجدة وجمال ، فاذا استطعت بعد ذلك أن تتصل بغير بلادك لتتمثل ما فيها من جمال وتجلية على غيرك ، أو استطعت

أن تكون أوسع مدى ، فاختلطت نفسك بنفس الانسانية كلها وترنمت عن ايمان صادق بأناشيد الخلد فى وحدة الوجود ، فقد بلغت الذروة من مراتب الالهام » .

ولا نجد فى هذا المنهج الذى أرساه هيكل لأبدع أدب قومى يلهمه التاريخ وتلهمه البيئة ويمتزج بالحاضر امتزاجا يجمع بين الحاضر والماضى ، ما يختلف عما نعنيه بالتاريخ وما نخط له من مناهج البحث ونهتديه من غاية ، والتاريخ ــ كما يقول بندتوكروتشى ــ هو تاريخ الحاضر ، فنحن لا نبغى حقا من دراسة التاريخ غير التعرف على الاطار الذى نعيش فيه ومعرفة أصوله . ولا يتسنى لنا معرفة الحاضر وتفسيره ما لم ندرك الماضى بالبحث فى حقيقة وجوده . والواقع أن كل ما يتناوله التاريخ بالبحث حاضر موجود أما ما مضى وانقطع وجوده فلا سلطات للتاريخ عليه ، وأقدر الناس اذن على كتابة التاريخ وأجدرهم به هم أصحابه وصانعوه ، اذ أن الشعور والاحساس يمتدان بهم الى أبعد أغوار تاريخهم من القدم ، فما زال الانسان يحمل فى أعماقه تراث ماضيه مهما بعد هذا الماضى أو عفت آثاره ، لذلك يرى هيكل « أن المصريين الذين يتقدمون الى ميدان البحث فى الشئون المصرية القديمة ، أدنى الى التوفيق به من أبناء أية أمة أخرى يتقدمون اليه، ذلك أن غير المصريين انما يترجمون مالا يتصل بحياتهم ، ومالا تسرى روحه فى قلوبهم وأفئدتهم فلهم ان أخطأوا عذر المترجم الذى ينقل من لغة الى لغة ، أما المصريون الذين يوفقون لمثل ما وفق اليه أولئك الغربيون العظماء من براعة فى الوقوف على أسرار المصريين القدماء فانهم حين يترجمون آثار هذه العصور القديمة، يشعرون فى غور وجودهم بما يتفق وهذه الصور والأخيلة والمعانى فيؤدونها الأداء الأوفى » .

وما يجرى على التاريخ القديم يجرى على غيره من العصور الأخرى ، وأقدر الناس على كتابة تاريخ أمة من الأمم هم أبناء تلك الأمة ، الا أن يسمو المؤرخ بحوافزه ومشاعره عن الاطار الاقليمى الضيق الى ما تسع الانسانية من آفاق الوعى والاحساس الكلى الجامع .

ولعل أبدع ما كتب هيكل من سير ما اتصل منها بوجدانه الفكرى أو القومى ، وكان ما اتصل منها بوجدانه الفكرى هو ما أهدى الانسانية جمعاء خير ما فيها من زاد أو أهل على الانسانية بخط جديد للانسان ، فحياة « جان جاك روسو » ، الذى أفرد لسيرته وفكره كتابا من أعظم ما كتب عن روسو بالعربية ، وحياة « بتهوفن » ، و « هبوليت أدولف تين » و « وليم شكسبير » و « برسى بيس شلى » وقد تناولها فى سير كثيرة كانت مما لمس احساسه ومشاعره وتركت من الأثر فى وجدانه وما انعكس على قلمه فى صور باهرة من صور البحث التاريخى الرصين الذى تمتزج فيه الحقيقة بما تثيره تلك الحقيقة من رؤى والهام ، فما أجدر بتدوين سيرة الأديب أو الفنان من كاتب تلهمه أحاسيس الفنان ومشاعره بالحقيقة منها عند من يكتب عنهم .

وقد ترجم لهم كما يقول « لمناسبات خاصة » ولأنى أحببتهم منذ زمن طويل حبا جما فلما كانت مناسبات كمرور مائة عام على وفاة بتهوفن أو على وفاة مولد تين أو نحوهما من المناسبات رأيت واجبا على لهذا الحب الذىأضمر لأولئكالرجال، حبا يعادل ما أفدت من آثارهم ، وما حققت لى من معانى السرور بها والطرب لها ، أن أثبت

صورة هذا الحب باثبات صورة من حياتهم هى الصورة الممتلئة بها نفسى منهم .

ولعله حين كتب سيرة كليوباترا واستهل بها كتابه « تراجم مصرية وغربية » قد رأى فيها نمطا جديدا من آنماط الانسان القمين بالذكر . فانها لاسم « ساحر خلع عليه التاريخ وخلعت عليه الأساطير من ألوان الفتنة بهاء باهرا تضاءلت الى جانبه أسماء الزهرة وأفروديت وسميراميس وسائر آلهة الجمال ، وهاتاسودنيفرت وسائر الملكات ، بل تضاءلت الى جانبه أسماء الملوك والشعراء والكتاب ، فهى ليست جميلة وكفى ، وليست مليكة وكفى ، وليست ساحرة الحديث وكفى ، وليست ذكية وكفى ، وليست أديبة وكفى ، بل هى ذلك كله ، وهى أكثر من ذلك كله ، هى الفتنة والسحر والذكاء والأدب والنشاط وقوة الارادة فى أسمى ما تصوره معانى هذه العبارات ، وهى مع ذلك آخر البطالسة الذين حكموا مصر عصورا طويلة ، كانت مصر فيها وحى الحكمة والشعر والجمال ، لذلك لم يفت مؤرخ ولا قصاص ولا شاعر آن يتحدث عن كليوباترة وأن يتغنى بحياتها ، وأن يصور هذه الحياة على النحو الذى يجب أن تكون ، ولذلك كان ما أريق من مداد وما سود من صحف فى الكلام عن هذه الملكة أكثر من مثله ممن يمكن لأية آلهة أو ملكة أخرى أن تفخر به » .

أما ما يتصل بوجدانه القومى ، فقد أراد أن يضع به أمام القارىء صورة ولو تقريبية لحياة مصر السياسية فى هذا العصر الأخير ، كان يود أن تمتد « عدة أجزاء تصل التراجم فيهابين عصور مصر المختلفة منذ عهد الفراعنة الى وقتنا الحاضر ، فما أشك أن كتابا كهذا يكشف من تاريخ مصر عن صلة عصورها بعضها ببعض وعن جهود المصريين متصلة منذ أول التاريخ الى عصرنا الحاضر فى سبيل الحق والحرية والعرفان » وان كان يعتذر عنه بأنه لم يتخصص فى التاريخ « ولم تمل بى حياتى العملية نحوه الا بمقدار .. واذا كنت قد وقفت على تاريخ مصر بشىء من الدقة فى العصور الأخيرة فذلك حين كتابة رسالتى للدكتوراه فى القانون عن « دين مصر العام » فقد اضطرنى ذلك الى الانقطاع لدراسة التاريخ الحديث منذ عهد والى مصر سعيد باشا . والاكباب على هذه الدراسة شهورا متوالية ، وتدوين الملاحظات ، والوقوف عند الأشخاص الذين كان لهم فى حياة مصر السياسية أثناء هذا العصر الأخير دور خاص ، وما يزال كثيرا مما وقفت عليه أثناء مطالعاتى ثم لم تقتض حاجة رسالتى تدوينه بها عالقا فى ذهنى ممثلا أمام خيالى صورة مصر منذ أيام محمد على وصور الكثيرين ممن لعبوا دورا خاصا فى حياتها . وأتاح لى اشتغالى بشئون مصر السياسية فى السنوات الأخيرة أن أضبط صور من ترجمت لهم من هؤلاء جهد ما واتتنى الطاقة » .

ولا يرضى هيكل عن اعتبار تلك التراجم ، تراجم بالمعنى الذى تقتضيه الترجمة من « تناول حياة المترجم له بتدقيق وتوسع أكثر مما عالجت أنا فى هذه الرسائل » ويرى أنها أقرب الى ما تؤديه الكلمتين الانجليزيتين «Biographical sketches» من معنى ، غير أنه لم يهتد لعبارة عربية سائغة لأن تكون عنوانا للكتاب تؤدى هاتين الكلمتين أداء دقيقا .

الا أننا نرى أن الصور التى أبدعها هيكل لتراجمه هى من الدقة والجلاء ما يفى بالغرض التاريخى للسيرة الحديثة ، فكل ما نهتدى به فى

كتابة السيرة الحديثة أن تكون صورة صادقة للأثر التاريخى لمن نكتب عنه ، سواء أكان هذا الأثر التاريخى أو واقعة ممتزجا أشد الامتزاج بحياة صاحب السيرة . وقد أوفى بها هيكل فى هذه التراجم القصيرة ما لم يف به على الصورة المنشودة فى كتابه « جان جاك روسو » .

كانت تلك هى محاولاته الأولى فى عالم التاريخ ، محاولات أديب يرى فى أحداث التاريخ ما يلهم أدبه أجمل الصور والمعانى ، فكتب « حديث الآلهة » ولم يف فيه بحبكة القصة كما أوفى بصدق الصورة التاريخية وانغلفتها طبيعة الفنان بالأخيلة التى لا تجنى على جوهر الحقيقة ، ولعله حين قصد الأدب لم يدرك تماما أن روح المؤرخ البحاثة تكمن فى أعماقه وتستهويه فيظنها نبعا لالهام أدبى يبدع منه أدبا قوميا جديدا،ولعله حين كتب « جان جاك روسو » لم يقصد أن يكتب سيرة مفكر بقدر ما كان يقصد أن يجلى فكرة لقراء العربية ولعل جهله بروح المؤرخ القابعة فى أعماقه ، والتى تجذبه بين الحين والآخر الى محراب التاريخ هى التى حملته الى الأدب لأنه كما يقول لم يتخصص فى التاريخ ولم تمل اليه حياته العملية الا بمقدار . وان كان قد وضع لكتابة السير منهاجا لا نغالى اذا قلنا انه أقرب منهاج فى فجاجته الى الطريقة العلمية فى كتابة السير ، وكان ذلك حين كان يظن نفسه أبعد الناس عن اقتحام ميدان البحث التاريخى ، ففى عام ١٩١٦ نشر بضع مقالات فى مجلة السفور عن «قاسم أمين» عرض فيها لغاية التاريخ وللمنهاج العلمى الذى تقوم عليه كتابة السير ، فلم تعد غاية التاريخ ان يلم بمواليد الملوك ووفياتهم وما يقومون به من الغزو والفتح فليس هو وحده الذى يقوم بتقييم حياة الأمم فقد ثبت للمؤرخين أن قيام الملوك ونزولهم عن عروشهم وما يتخلل ذلك من الحروب ليس الا مظهرا من مظاهر هذه الحياة . خصوصا بعد أن دك عرش الاستبداد . وقامت الديمقراطية حاكمة آخذة بيدها النهى والأمر ، وانما قوام حياة الأمم مميزاتها من أخلاق وعادات وعقائد وآمال ، تلك مجموعة المظاهر التى تصدر عن الأمة والتى تقوم عليها الحكومات والملوك ، والحروب ، من يوم أن ثبت ذلك لعلماء التاريخ فى أوربا وجهوا عنايتهم الخاصة لبحث كافة المظاهر التى كانت تصدر عن المجموع الذين يريدون تعرف ماضيه ، فلم يتركوا أثرا يهدى لبعض هذه المظاهر الا قفوه ، وبذلك أمكن لهم أن يرسموا فى التواريخ التى وصفوها صورا مضبوطة من تلك الأمم ، واستطاعوا من بعد ذلك أن يربطوا الحاضر بالماضى وأن يقدموا بذلك لأنفسهم ولغيرهم من المفكرين وعلماء الاجتماع مادة جيدة غزيرة يمكن معها رسم أقوم الطرق للوصول الى أحسن ما يرجى فى المستقبل » .

وبعد أن يحدد هيكل فى أسلوب البادىء الذى يقتحم ميدان الكتابة ، غاية التاريخ على ما يجمع عليها فلاسفة التاريخ فى القرن الأخير ، نراه يضع المنهاج العلمى لكتابة السيرة فيقول « من أجل درس رجل من الرجال فيلسوفا كان أو كاتبا، أو شاعرا يجب قبل كل شىء تعرف الوسط الذى عاش فيه ، والحال النفسية الخاصة به ، حتى نعلم تأثير هذه البيئة المعينة على هاته النفس المعينة ، فاذا تم ذلك تفسر الفيلسوف أو الكاتب أو الشاعر الى حد كبير » ويحدد هذه البيئة بما دعاه « بالوسط الطبيعى »ـو « الوسط الاجتماعى » ويمضى على هذا المنهاج فى رسم الصورة التى يراها وافية لقاسم أمين . ولكنه بعد ذلك بأكثر

من عشر سنوات يعود الى ترجمة قاسم أمين . ويكون قد استوفى من القدرة على البحث والتحليل والعمق ما يرتفع به الى القمة بين كتاب السير .

ولم يهتد هيكل الى روح المؤرخ القابعة فى أعماقه الا بعد صرفه عن « حديث الآلهة » ــ كما يقول ــ اتجاه ذهنه واتجاه روحه وجهة جديدة فى البحث ، « ليس دون بحث الآلهة الأقدمين مشقة ، ولكنه أجل منها مقاما وأرق فيما ينطوى عليه من حق ونور وجلال وجمال » .ولعله حينذاك كان يفكر فى كتابة « حياة محمد » أو لعله كان قد بدأه ، فقد أخذت بعض فصوله تظهر على صفحات السياسة الاسبوعية حينذاك .

فالجاذبية التاريخية التى حملته على كتابة حديث الآلهة لابداع أدب قومى يطاول نظائره فى آداب الغرب ، والتى حملته على كتابة « جان جاك روسو » ، وخلقت له المناسبات منفذا اليها يتجارب فيها مع روح المؤرخ القابع فى أعماقه حين كتب « تراجم مصرية وغربية » ، الا أن هذه الجاذبية التاريخية تتميز بحافز فرد ، بين القسمات والملامح لا نضنى فى العثور عليه » ، ولا نضل فى تبين سماته ومعالمه ، يراه هيكل ممثلا فى كل ما يتصل أسبابه بنفوسنا ويمتزج بمشاعرنا امتزاجا يجدد الحياة ويضفى عليها قوة ونماء ، ولا شىء يثير هيكل قدر ما يثيره الجلال والجمال والحق فى صور التاريخ ، ألم يصرفه عن حديث الآلهة ما تنطوى عليه صورة تاريخية أخرى تفوق حديث الآلهة « نورا وجلالا وجمالا وحقا » .

فليست كل صور التاريخ مما يجذبه ويستثير وجدانه ، ولكنها الصور التى تحمل ما يتصل بفكره عن هذا الوجود ، وهى الصور التى تحفل بمعانى الحق والخير والجمال ، فالفكرة التاريخية هى التى تلهمه ، على أن تكون صدى لأحاسيس وجدانه ومشاعره ، أو تتصل بنفسه بصورة من صور الوفاء ، الوفاء للوجود التاريخى ، أو الوفاء لمن مست حياته حياتهم ، فان جلال الفكرة التى تتضمنها صورة التاريخ لا تقيم فى ذهنه ولا تغيب عن وجدانه ، بل انها لتفور جميعا من نبع واحد هو تلمس الحق أو الخير أو الجمال فى كل صورة من صور التاريخ تجذبه اليها ، فكتب عن الخديو اسماعيل ملتمسا الحكمة من الحق ، وملتمسا الحقيقة من الواقع « فأكبر الأثر الذى خضعت وما تزال تخضع له مصر حتى الآن انما ترتب على حكم اسماعيل باشا ، فأكبر مظاهر الحضارة التى تراها اليوم فى مصر يرجع اليه ، اليه يرجع فضل انشاء السكك الحديدية وتنظيم البريد وله الفضل الأول فى النظام القضائى القائم فى مصر حتى اليوم وله أكثر من ذلك كله الفضل الأكبر فى شعور الأمة المصرية بكيانها ، ثم ان عليه تبعة الارتباك السياسى الذى لا تزال مصر تجاهد بكل قواها للخروج منه ، وتبعة الاضطراب المالى الذى شل حركة البلاد سنوات طويلة ، وهو ما يزال الى اليوم باقى الأثر ، وعليه أكثر من ذلك تبعة تسليم البلاد ماليا واقتصاديا وسياسيا الى أيدى الأجانب. فهذه الستة عشر عاما التى رأته على عرش مصر (من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩) والتى شهدت من مظاهر النشاط المعمر . ومن فضائح الظلم المخرب ، ومن البذخ والأسراف اللذين لا يعرف التاريخ ولا تعرف الأقاصيص لهما نظيرا ، والتى انتهت بسقوط عاهل مصر العظيم بعد أن جاهد أمته فأجهدها ، وبعد أن جاهد أوربا فأخضعته لها وبعد أن جاهد القدر فهوى به عن عرشه ، وأخرجه

من مصر حسيرا ينظر الى شواطئها تبتعد عنه بعين دامعة وقلب كسير ، هذه الستة عشر عاما التى جرت الى مصر مظاهر الحضارة الأوربية ، وهى التى جرت على مصر الخراب ، وهى التى أيقظت فى شعب مصر الروح الاستقلالية التى لم ينسها يوما من الأيام ، وهى التى أججت فى نفوس المصريين نيران كراهية الاستعباد والظلم والحرص على الحرية والعدل » .

هذه هى الحكمة التى يسوقها هيكل من خلال نظرته الى تاريخ اسماعيل ، فلو أردنا أن نبدع صورة حقة لتاريخ اسماعيل أو بعبارة أصح للأثر التاريخى الذى يتقصاه مؤرخو السير لما استطعنا أن نبدع أصدق من الصورة التى يرسمها هيكل له فى استهلاله لترجمة حياته ، وهذه الحكمة هى بعض ما يجذب هيكل الى محراب التاريخ ففيها عظة الأنسانية جميعا ودرس التاريخ لمن أراد أن يعى دروس التاريخ .

وهى نفس الحكمة التى يتقصاها فى « ترجمة الخديو توفيق باشا » ، فلا نجد أبلغ منها حين يصوره على حقيقته شابا بين السابعة والعشرين والأربعين ، يلى فيها أمور مصر بين ، عوامل لا يستطيع مدافعتها والتغلب عليها الا نابغة محنك وهو بين هذه العوامل رجل يشعر بضعة أمومته ـ فقد كان ثمرة لبرهة هوى من اسماعيل لأحدى جواريه التى لم تنل منه الا حظوة قصيرة ، ولم تكن له زوجا ـ ويحقد أهله عليه ، ويود لو أنه كان فى مكانة أبيه بطشا وسلطانا . ويخضع للأقدار التى لم تهبه من سعة الذكاء ما وهبت غيره ، ولتربيته الشرقية البحتة التى اقتضت أن لا يغادر مصر ، وأن لايتصل بالمدنية الأوربية اتصال اخوته وللظروف التى جعلت تتقاذفه منذ ارتقى عرش ابيه فتصدمه بكل واحد من العوامل المحيطة به ، لينتهى به الأمر الى أن يكون فى تاريخ مصرصورة غير محبوبة ، ولا ممقوتة ، صورة مرت فى هذا التاريخ فكان أثره فيه سلبيا هو أثر العاجز عن أن يقوم لبلاده أو لنفسه بخير ، وليودع العالم فى الأربعين من عمره » .

هذه الصورة من الوجود التاريخى بما فيه من حكمة وما تحمل من عظة وعبرة هى بعض ما يجذب هيكل الى التاريخ ، وان غدا أكثر جاذبية حين يحفل الى جانب الحكمة بمعانى الحق والخير والجمال التى يراها أكمل ما تكون فى فكر الانسان الخالد ، فكتب عن « جان جاك روسو » يجذبه اليه فكرته السامية عن « العدالة الاجتماعية والايمان بالعمل » مع ما استهواه اليه من طبيعة تفكيره الشرقى ، فكلما اقتربت من نفسه ومن طبيعته تغدو أكثر جاذبية ، وكتب صور التاريخ المصرى عن حب جياش لما خلفت حضارة مصر القديمة من فكر وفن وآثار تتضاءل الى جانبها « تماثيل الأغريق وتماثيل روما » لو رآها الناس لقالوا عن أجدادنا انهم أجداد الفن ، وعن مصر أنها مهد المدنية ، ولو رأوا حنوط الورد واللحم وما تنبت الأرض من بقلها لتضاءلت مدنيتهم أمام ما يرون . لو رأوا خلود هذا الزهر الرقيق السريع الى الذبول ، وبقاء تلك الحنطة الدقيقة المتآكلة وقرنوا اليها حديدهم الصلب يفنى ويتآكل رغم عنايتهم ، وحجارتهم القاسية تنهار وان شادوها اذن لأيقنوا أن هؤلاء المصريين القدماء وصلوا من المدنية الى قمة نفخ بعدها فى الصور فاضطرب الوجود وتداعت قوائمه ، ثم بعث من بعدهم خلق جديد وسار يتطور فى سبيل التقدم ، وهو لما يبلغ بعد مدنيتهم ، وهو لن يبلغها الا أن تكون مصر

على رأس العالم والا أن تكون أم المدنيــة ، والا أن تبلغ هى الغاية التى تطمح اليهــا الانسانية ، والانسانية لم تصلها ، وهى لن تصلها حتى تمسك مصر زمام القيادة ، فتتولى السير بالعالم فى سبيل الرقى والسعادة » .

وبتلك الجاذبية للتاريخ يحفزها الوفاء للصورة التى يتناولها كتب ترجمتى« محمود باشا سليمان» و « عبد الخالق ثروت باشا » . وقد اتصل بكليهما اتصال فكر واتصال معرفة ، فقد كان ثروت ممن اتصل بهم فى ميدان العمل السياسى بعــد تأليف حزب الأحرار الدستوريين ، وكان محمود سليمان رئيسا لحزب الأمة الذى نشأ هيــكل فى رحابه بحكم صلته « بأستاذنا لطفى بك السيد » ، الا أنه لا يدع لهذا الهوى أثرا على تجرد المؤرخ ، فيقول فى صدر ترجمــة « ثروت » : « على أنى رأيت أن أقف فى ترجمته عند الوقائع الثابتــة ، وأن أتجنب المغامرة فى الفروض والظنــون حتى لا يتعرض ما اكتب عنه لنقد يفسده ، وأن أمكن أن يظهر فيه نقص كثير » .

وهذا التجرد من الذاتية هو أقدس ما يتوخاه المؤرخ ، فلم يحمله الوفاء أو الحب ، ولم تحمله جاذبية التاريخ على الذاتية التى تطبع الــــكاتب أحيانا بالتحيز لمن يكتب عنهم ، فسادت الموضوعية كل كتاباته التاريخية ، يتحرى الواقعة ويستقرىء الفكرة ويحكم الحكم الصــحيح الذى يتفق مع العقل والمنطق .

كتابة السيرة :

وتحمله الجاذبية التاريخية الى ميدان أكثــر جمالا ونورا وجلالا اجتمع اليه فيه « عبـــادة البطل » فى التاريخ كما يرى « كارليل » وعبادة العمل العظيم كما نرى للتاريخ الحديث . فكانت حياة محمد « أول سيرة للرسول الكريم على النهج العلمى الحديث وأول سيرةله عليه الصلاةوالسلام بعد آن كتب رفاعة الطهطاوى » نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز « منذ نيف وستين عاما ،وكان المؤرخون قد انقطعوا عن كتابة السيرة النبــوية نيفا وأربعة قرون . وكان كتاب » امتاع الأسماع بما للرسول من خولة وحفدة ومتاع للمـــؤرخ المصرى تقى الدين المقريزى فى منتصف القـــرن الخامس عشر الميلادى آخر ما كتب فيها .

وهو ميدان يتصل بقلبه واحساسه ومشاعره. اتصالا يتجاوز العاطفة الدينية الى آفاق رائعة من عبادة الخير والحق والجمال ، ومن الحميـــــة الدينية أو الحمية للحق التى حملته على كتــابة « حياة محمد » ردا على المتعصبين من الغربيــين الذين لجوا فى الطعن على النبى وعلى الاســلام والمسلمين ، وتصحيحا لما جاءت به أكثــر كتب السيرة « حين أضافت الى حياة النبى مالا يصدقه العقل ولا حاجة اليه فى ثبوت الرسالة » و«تأييدا على النهج العلمى لمن قام من علماء المسلمين كمحمد عبده يدحض مزاعم المتعصبين من أبناء الغــرب فانهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التى زعم أولئك الكتاب والمؤرخون ، الأوربيون أنهم يســلكونها لتكون لحجتهم قوتها فى وجه خصومهم»واجتذابا لفريق من المسلمين المتعلمين ، انصرفوا الى كتب الغرب يلتمسون فيها الحقيقة ، اقتناعا منهم بأنهم لن يجدوها فى كتب المسلمين » . بعد أن تبينوا أن « الزندقة تقابل حكم العقل ونظــام المنطق فى نظر جماعة من علماء المسلمين ، وأن الألحاد عندهم قرين الاجتهاد كما أن الايمان قرين الجمود » . فاتجهوا الى الفلسفة وأهملوا « التفكير فى الأديان

كلها وفى الرسالة الاسلامية وصاحبها . حرصا منهم على ألا تثور بينهم وبين الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها ، ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحى بين الانسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع به الانسان الى أرقى مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية » ، واقتحاما لميدان ان وجل من اقتحامه من يهاب صولة الجمود ، فقد رآه واجبا يفسد به ما يبغيه الاستعمار من تأييد للطاعنين على الاسلام باسم حرية الرأى ولدعاة الجمود من المسلمين،ومايقصد اليه بذلك « من القضاء على الروح المعنوية » فى بلاد الاسلام « بالقضاء على حرية الرأى وحرية البحث ابتغاء الحقيقة » مما يضر « بالانسانية كلها ولا يقف ضرره عند الاسلام والشرق وأى أذى يصيب الانسانية أكبر من العقم والجمود يصيب نصفها الأكبر والأعرق فى الحضارة على حقب التاريخ » .

وفكر هيكل فى هذا وأطال التفكير — كما يقول — وهداه التفكير « آخر الأمر الى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الاسلامية ، وهدف مطاعن المسيحية من ناحية ، وجمود الحاقدين من المسلمين من الناحية الأخرى،على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة ، خالصةلوجه الحق ، ولوجه الحق وحده » يتصدى بها للمبشرين ولمن تسول لهم انفسهم الطعن فى هذا الدين القويم .

فالحمية للحق هى التى حملته على كتابة «حياة محمد» والحق الذى يبتغيه مواطن من الجلال والجمال فى الدعوة الاسلامية وفى حياة الرسول تجذبه اليها ، فما « كان أعظمه فى تحنثه وما كان أعظمه فى قومه الى الهدى ، وفى صبره على أذاهم ، وفى تأديبه للمسلمين بأدب القوة على الحياة ، وما كان أعظمه فى هجرته وفى غزواته ، وفى عفوه وحلمه ، وفى تقواه وعدله نعم ، ما كان أعظمه فى كل صفاته وفى كل أعماله لكن هذه العظمة التى لا تدانيها عظمة تصبح أمرا انسانيا اذ ذكر الوحى ، وذكر اتصاله بربه وما رأى من آياته الكبرى ، هنا يبلغ السمو الى حيث لاتدرك الانسانية منه بعض المدى ولا يسع الانسان الا أن يكرر قوله تعالى :

« والنجم اذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى . ماكذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على مايرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرةالمنتهى . عندها جنة المأوى. اذ يغشى السدرة مايغشى . مازاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وهنا يحاول العقل أن يسمو فوق نفسه ليدرك هذا الأفق الأعلى . وهيهات أن يدركه والعلم ما يزال الى اليوم محدود الأفق قاصرا دون تفسير الكثير مما يقع عليه الحس » .

واقتحم بذلك ميدانا اتهم فيه بالرجعية ، فقد حسب من اتهموه — كما يقول فى مقدمة « منزل الوحى » انه انقلب بكتابة السيرة رجعيا . « وكنت عندهم قبلها فى طليعة « المجددين » وكيف لانقلب عندهم رجعيا وقد جعلت القرآن حجتى وما جاءفيه عن السيرة سندى ، ولم أضعه كما يقولون موضع النقد العلمى وكيف لا أنقلب عندهم رجعيا وقد

دفعت بالحجة ما طعن به على النبى الكريم جماعة المستشرقين ومن تابعهم من شباب المسلمين وكيف ساغ لى بعد ذلك أن أزعم أمامهم فى حياة محمد، وأن أزعم اليوم هاهنا أننى طليق من القيود عدو للجمود ، نصير للبحث العلمى الحر وأننى أؤمن بحرية الرأى ، وأعتبرها الأساس ، لا أساس غيره، لمن يريد معرفة الحقيقة هم يرون ذلك خداعا يأباه العلم والبحث الحر ، وأنا بعد عندهم رجعى انقلبت الى الجمهور اتابعه ابتغاء رضاه ، وكنت قبل ذلك أتقدمه أريد توجيهه وهدايته » .

ويرد هيكل على اتهامه بالجمود بأنه قد خيل اليه زمنا « كما لا يزال يخيل الى أصحابى » أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا الىهذا النهوض ، ومازال على رأيه التماس حياة الغرب العقلية ، « لكننى أخالفهم فى أمر الحياةالروحية، وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله ، فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافة الغرب » . ويمضى فى سردمابين الحياتين من فروق ، مما خفى على أصحابه فلم يروه ــ كما يقول ــ فكان تثريبهم عليه ، « ولكن لا عجب ، فقد خفى هذا الكلام عنى سنوات ، كما لا يزال خفيا عن كثيرين منهم . وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذهما جميعا هدى ونبراسا ، لكننى أدركت بعد لأى أننى أضع البذر فى غير منبته فاذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ، ولا تبعث الحياة فيه ، وانقلبت التمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعين موئلا لوحى هذا العصر ينشىءفيه نشأة جديدة ، فاذا الزمن واذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة . ورؤأت فرأيت أن تاريخنا الاسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ،ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو » .

ويتحدث هيكل عن المنهج العلمى الذى اقتفاه فى « حياة محمد » وسار عليه فى « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » فيقول : « لستمع ذلك أحسبنى أوفيت على الغاية من البحث فىحياة محمد . بل لعلى أكون أدنى الى الحق اذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة العلمية الحديثة وتقتضيك هذه الطريقة العلمية اذا أردت بحثا ــ على ما يقول الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى المراغى فى تعريفه بالكتاب مستندا الى قول المؤلف ــ « أن تمحو من نفسك كلرأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحثوأن تبدأبالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقومات العلمية ، فاذا وصلتالى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها، وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت اليه الانسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته » . ويرى الأستاذ الأكبر « أن هذه الطريقة طريقة القرآن فقد جعل العقل حكما والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين وأنب من يتبع الظن وقال : ــ ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ــ وعاب تقديس ما عليه الآباء وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها » .

وهى طريقة سلف المسلمين ، كما يقول ــجرى الامام الغزالى عليها ، فقرر فى أحد كتبه « أنه جرد نفسه من جميع الآراء ، ثم فكر وقدر ورتب ووازن ، وقرب وباعد وعرض الأدلة وهذبها

وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله » فهى طريقة قديمة فى الشرق نسيها بعد أن فشا التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناصع وأفادوا منها فى العلم والعمل ، رجعنا نأخذ عنهم، ونراها طريقة فى العلم جديدة .

وعلى هذا المنهج فى البحث والاستقراء والموازنة كتب هيكل تراجمه الاسلامية ولم يكن هذا المنهج غريبا عليه ، الا أنه أوفى به على الغاية فى كتابتها فقد « درس القانون ــ كما يقول ، الشيخ المراغى ــ وأطلع على المنطق والفلسفة ، ومكنته ظروفه وطبيعة عمله من الاتصال بالثقافة القديمة والثقافة الحديثة وأوفى منها على حظ عظيم وناظر وجادل ، وهاجم ودافع ، فى المعتقدات والآراء وقواعد الاجتماع وفى السياسة وغيرها ، فنضج عقله وكمل علمه ، واتسع اطلاعه وامتد أفقه ، فأصبح ينافح عن آرائه بمنطق قوى وحجج باهرة ، وأسلوب اختص به لا تخفى نسبته اليه. بهذه الثقافة وهذه القوة نسج الدكتور كتابه ».

وبهذا المنهج العلمى من البحث والاستقراء والتحليل والموازنة استطاع هيكل أن ينقى السيرة من الشوائب التى دخلت عليها لعقم المنهج التاريخى القديم الذى يقوم على الرواية والتواتر دون أن يعنى بالفحص والتمحيص مما حمل عليه « ابن خلدون » وضرب أمثلة له مما حفلت بها كتب التاريخ من تهاويل لا يقبلها العقل أومبالغات لا يسيغها المنطق ، فقد أخذ كتاب السيرة بروايات الزنادقة أو صورتها الأسرائيليات واتخذها المستشرقون حجة للطعن على الاسلام وتجريح الرسول الكريم متغاضين عما فيها من وهن ومن جفوة للمنطق العلمى . كقصة الغرانيق وزواج النبى من « زينب بنت جحش » بعد أن طلقها زيد بن حارثة .

وفند هيكل قصة الغرانيق وأثبت مجافاتها للمنطق العلمى ، وأخضعها للفحص والتمحيص فأثبت بطلانها ، كما فسر زواجه من « زينب بنت جحش » ، بما لا يقبل الجدل فى حقيقة ما يرمى اليه (عليه الصلاة والسلام) من القضاء على عادة جاهلية ذميمة . ودعم حق جاء به الاسلام حين سوى بين الناس جميعا الا فى التقوى ، لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، و « أن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وما كان لمحمد أن يقيم هذا الحق الا على نفسه أولا ، فما كان زيد بن حارثة الا عبدا اشترته خديجة وأعتقه هو وكان زواج العربية الحرة من مولى وان أعتق عارا عند العرب ، فما بالك بزينب الهاشمية القرشية ابنة عمة الرسول ، فاذا خطبها زيد ورأى محمد أن تتزوجه ، فلتكون وهى على هذا الشرف والفضل المثل الكريم الذى يضربه للعرب ، فلما لم تستقم الحياة بينهما وانفصلا تزوجها محمد وحتى لا يكون زواجها من مولى عائقا لها أو لغيرها من الزواج بأشرف الناس وأعلاهم قدرا ، « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لايكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » .

كما نراه يبدى رأيا جديدا فى « الاسراء والمعراج » وقد اختلف فيهما المفسرون أكانت بالروح أم الجسد أم بهما معا ، وذهبوا فى تصوير ما جرى ليلتها تصويرا ينقص أو يزيد بين الرواة

والمفسرين ، ولا يعنيه فى هذا الرأى طبيعة الاسراء والمعراج بل يعنى كل العناية بالحكمة فيهما ويأتى بهذا الرأى الجديد : « ففى الاسراء والمعراج فى حياة محمد الروحية معنى سام غاية السمو ، معنى أكبر من هذا الذى يصورون ، والذى قد يشوب بعضه من خيال المتكلمين المخلص حظ غير قليل ، فهذا الروح القوى قد اجتمعت فيه فى ساعة الاسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها . لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبيا ، محدودا بحدود قوانا المحسة والمدبرة والعاقلة ، تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد ، واجتمع الكون كله فى روحه ، فوعاه منذ أزله الى أبده ، وصوره فى تطور وحدته ! الى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق فى مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة .

« والعلم فى عصرنا الحاضر يقر هذا الاسراء بالروح ويقر المعراج بالروح ، فحيث تتقابل القوى السليمة يشع ضياء الحقيقة ، كما أن تقابل قوى الكون فى صورة معينة قد طوع « لماركونى » اذ سلط تيارا كهربائيا خاصا من سفينته التى كانت راسية بالبندقية أن يضىء بقوة موجات الأثير مدينة « سدنى » فى استراليا ، وفى عصرنا هذا يقر العلم نظريات قراءة الأفكار ومعرفة ما تنطوى عليه ، كما يقر انتقال الأصوات من الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتوبات كذلك مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال ، وما تزال القوى الكمينة فى الكون تتكشف لعلمنا كل يوم عن جديد ، فاذا بلغ الروح من القوة والسلطان ما بلغت نفس محمد فأسرى به الله ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليريه من آياته ، كان ذلك مما يقر العلم ، وكانت حكمة ذلك هذه المعانى السامية فى جمالها وجلالها ، والتى تصور الوحدة الروحية ووحدة الكون فى نفس محمد تصويرا صريحا ، يستطيع الانسان أن يصل الى ادراكه اذا حاول السمو بنفسه عن أوهامه العاجلة فى الحياة ، وحاول الوصول الى كنه الحقيقة العليا ليعرف حقيقة مكانه ومكان العالم منه » .

ويمضى هيكل مع أحداث السيرة فى ابراز صورة هذا المجتمع الاسلامى الناشىء وتطوره الى الكمال بختام الرسالة فسيرة الرسول الكريم هى سيرة هذا المجتمع الاسلامى الناشىء الذى تطور على يد خلفائه لتكون منه أمة الاسلام ولتكون هذه الدولة الاسلامية الكبرى التى هزت أركان أعظم امبراطوريتين شهدهما العالم حينذاك دولة فارس ودولة الروم فقضى على الأولى ، واقضى من أطراف الثانية حتى قضى عليها محمد الفاتح أحد أبطال الاسلام فكانت خاتمتها هى الأخرى على يد الدولة الاسلامية التى بقيت تحمل شعلة الحضارة والتمدين خلال العصر الوسيط .

وبهذا المنهج العلمى يكتب سيرة الخليفتين الأولين : أبى بكر وعمر ، وأغلب الظن أنه كان سيمضى فى التأريخ لهؤلاء الأعلام لولا مشاغل السياسة التى عاقت جهده عنها ، ولولا أنه انصرف الى تدوين مذكراته السياسية فأضاف الى منهج البحث التاريخى منهجا آخر للتدوين التاريخى ، وما كانت لتصرفه عنها تماما ، وظل فكره عالقا بها ، وكتب بعضا من سيرة عثمان نشر بعد وفاته ، وأغلب الظن أنه كان سيمضى فيها الى نهاية عهد

الخلفاء الراشدين ومن ثم الى كتابة قصة الحضارة العربية فى ملحمتها المأثورة ، الا أن الزمن لا يطول أبدا حتى يضىء بفكر الأفذاذ من المفكرين ، ولو عاش المفكرون أضعاف ما عاشوا ، لما انقضى فكرهم ولما انقطع انتاجهم .

حياة محمد

يبدأ الكتاب بتعريف « لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى » يقدم فيه طريقة البحث العلمى التى توخاها المؤلف وقال عنها انها « تقتضيك اذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية » ثم يقول : ان « هذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت اليه الانسانية فى سبيل تحرير الفكر، وهاهى ذى مع ذلك طريقةمحمد وأساسدعوته».

ويرى الأستاذ الأكبر أنها طريقة القرآن ، وماكانت معجزة محمد«الا فى القرآن وهىمعجزة عقلية » يستشهد عليها بقول البوصيرى :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به
حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

ويقول ان الامام الغزالى « قد جرى على الطريقة نفسها ، وقد قرر فى أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر ، وقدر ، ورتب ، ووازن ، وقرب ، وباعد ، وعرض الأدلة ،وهذبها وحللها » ليهتدى الى ما اهتدى اليه من آراء ، وليهتدى « بعد ذلك كله الى أن الاسلام حق » حتى يكون « ايمانه ايمان المتيقن المعتمد على الدليل والبرهان » . كما يقول : « ان العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه ، سيكون نصير الدين ، وسيقرب الى العقل الانسانى ما كان غامضا مبهما ، وما كان فوق طاقة العقل ادراكه من قبل » مصداقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنهالحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء قدير » فقد قربت الكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات « الى العقل فهم امكان تحول المادة الى قوة وتحول القوة الى مادة » . وانتفع « الدكتور هيكل بشىء من هذافى تقريب قصة الاسراء فأتى بشىء طريف . »

ويبدأ المؤلف بتقديم الكتاب ، مستهلا تقديمه على الصورة التالية :

« محمد عليه الصلاة والسلام »

« بهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه ،وله تهتز ملايين القلوب كل يوم مرات ، وهذه الشفاه والقلوب به تنطق وله تهتز منذ أربعمائة وألف سنة الا خمسين ، وبهذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه وتهتز ملايين القلوب الى يوم الدين».

ثم يبدأ فى بيان الثورة التى انتشر بها الاسلام وأدت الى تكوين الامبراطورية الاسلامية الأولى ، التى خفقت عليهاأعلام الاسلامفما انحسر عنها الى يومنا هذا « خلا الأندلس التى أغارت النصرانية عليها فعذبت أهلها وأذاقتهم ألوانا من الشدة والبأس » وان عوض الاسلام ما خسره فى الأندلس ببقاع جديدة « حين فتح العثمانيون القسطنطينية ومكنوا لدين محمد فيها » الا أن هذه القوة التى انتشر بها الاسلام سرعان ماوقفته وجها لوجه أمام المسيحية وقفة نضال مستميت ومن يومها«انبعث تعصب المسيحية على الاسلام» ويظل بهذه الشدة فى عصر يزعمون أنه عصر النور والعلم وأنه لذلك عصر التسامح وسعة الأفق ، مع

ما كان من سماحة الاسلام مع النصرانية ومايحمل الاسلام من توقير للمسيحية ولعيسى بن مريم ، ويسوق المؤلف الفروق الأساسية بين الدينين كالتوحيد فى الاسلام والتثليث فى المسيحية ، وما كان من رأى الاسلام فى صلب المسيح ، ثم كانت الخصومة بين الدينين خصومة غلب فيها الوجه السياسى على الدينى حين فكر الروم « فيما يصيب ملكهم ، اذا تم للدين الجديد الغلب »ومن«يومئذ وقف المسلمونوالنصارى موقفخصومة سياسية» تداول الاثنان فيها النصر الا أن النصارى ما فتئوا يطعنون على المسلمين ونبيهم « طعنا كله فحش وكذب وافتراء ، ونسوا فى فحشهم ما بلغ محمد عليه السلام فى أحاديثه ، وما بلغ القرآ نفى الوحى الذى نزل عليه ، مع رفع مقام عيسى عليه السلام الى المستوى الذى رفعه الله اليه » . فقالت موسوعة لاروس الفرنسية « من محمد شرنيل » بقولها : « بقى محمد مع ذلك ساحرا ممعنا فى فساد الخلق ، لص نياق ، كردينالا لم ينجح فى الوصول الى كرسى البابوية ، فاخترع دينا جديدا لينتقم من زملائه ، واستولى القصص الخيالى والخليع على سيرته . وسيرة باهومية (محمد) تكاد تقيم أدبا من هذا النوع ، وقصة محمد التى نشر رينو وفرانسيسك ميشيل سنة ١٨٣١ تصور لنا الفكرة التى كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه ، وفى القرن السابع عشر نظر بيل فى تاريخ أبى القرآن نظرة تاريخية ، مع ذلك ظلت مقررات ظالمة ثابتة فى نفسه عنه ، على أنه يعترف مع ذلك بأن النظام الخلقى والاجتماعى الذى أقامهلايختلف عن النظام المسيحى لولا القصاص وتعدد الزوجات » .

ويمضى الدكتور هيكل فى الاشارةالى ماتناول به كتاب الغرب الاسلام من طعن وتجريح وأنه « مجموعة الهرطقات كلها وأنه من عمل الشيطان، والمسلمين بأنهم وحوش ، والقرآن بأنه نسيج من السخافات » والى اصرارهم على « اثارة العداوة، والبغضاء بين أبناء الانسانية » ولا يكتفى الغرب بهذا بل « تبلغ منه الجرأة حتى يبث المبشرين فى أنحاء البلاد الاسلامية يذيعون مثالبهم الوضيعة ويحاولون صرف المسلمين عندينهم الىالمسيحية». ويرد ذلك لا الى الجهل والتعصب ، ولا الى « حب الظفر بالشعوب لاستغلالها ، فتلك فى اعتقادنا نتيجة وليست سببا لهذاالتعصبالمستعصى حتى على العلم وعلى بحوثه » ولكن الى طبيعة المسيحية « وما تدعو اليه من الزهد فى الحياة ، واعتزال العالم ، ومن العفو والمغفرة ، ومن المعانى النفسية السامية مما لا يلائم طبيعة الغرب » الذى عاش ألوف السنين على دين تعدد الآلهة « والذى أضفت عليه حياته فى مغالبة » الزمهرير والضنك وسوء الحال ، فاذا قضت الظروف التاريخية أن يدين بالمسيحية فلا مفر له من أن يسبغ عليها ثوب الكفاح ، وأن يخرجها بذلك من طبيعتها السمحة الجميلة » . وهو ما يفسر نفسه « اغراق الغربيين وغلوهم فى التدين وفى الالحاد جميعا اغراق تعصب وكفاح لا يعرف الهوادة ولا يعرف التسامح » . كما « عاون الاستعمار الغربى أهله على الاستمرار فى الحملة التى أثارها على الاسلام وعلى محمد » والى نسبة انحطاط الشعوب الاسلامية الى دينهم ، ناسين « أن الشعوب الاسلامية ظلت صاحبة الحضارة وصاحبة السيادة على العالم المعروف كله قرونا متوالية » .

ولئن حمل الاسلام وزر انحطاط الشعوب الاسلامية ، فمن العذر « ان أضيف الىدين الله

شيء كثير لا يرضاه الله ورسوله ، واعتبر من صلب الدين ، ورمى من ينكره بالزندقة » كما أضافت « أكثر كتب السيرة الى حياة النبى مالا يصدقه العقل ولا حاجة اليه فى ثبوت الرسالة». وقد قام من علماء المسلمين من يدحض مزاعم الغرب « وأنصع الأسماء فى هذا الصدد ، اسم الشيخ محمد عبده » ولكنهم « لم يسلكوا الطريقة العلمية » ، كما «اتهموا بالالحاد والكفر والزندقة» وكان من أثر هذا الجمود أن انصرف الشباب عن التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الاسلامية وصاحبها » الى العلم الواقعى والفلسفة الوضعية متوهمين أن الدين لا يخضع للمنطق ولا « يدخل فى حيز التفكير العلمى » .

ولئن كنا فى حاجة أشد الحاجة الى النهل من ورد الغرب فى التفكير وفى الأدب والفن «فمن الحق أن نقول أن علماء الغرب قد قاموا »ببحوث نفسية فى تاريخ الدراسات الاسلامية والدراسات الشرقية فمهدوا « لأبناء الاسلام وأبناء الشرق أن يتزايدوا من تلك البحوث » اهتداء الى الحق « فهم أقرب بطبعهم الى حسن ادراك الروح الاسلامى والروح الشرقى » • وواجب عليهم « أن يتابعوه وأن يصححوا أغلاطه وأن يبثوا فيه الروح الصحيح الذى يعيده الى الحياة ويصله بالحاضر فمازال رجال الكنيسة المسيحية» سادرون « فى الطعن على الاسلام وعلى محمد طعنا لا يقل عما تلوث منه فيما سبقت الاشارة اليه »• يؤيدهم الاستعمار الغربى باسم حرية الرأى » بغية القضاء على الروح المعنوية فى هذه البلاد بالقضاء على حرية الرأى وحرية البحث ابتغاء الحقيقة «ويجدون فى دعاة الجمود من المسلين » ما يؤيد طعنهم على الاسلام والمسلين • « ولذلك فكرت فى هذا وأطلت التفكير وهدانى تفكيرى آخر الأمر الى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الاسلامية وهدف مطاعن المسيحية من ناحية،وجمود الجامدين من المسلمين من الناحية الأخرى ، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة ، خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده ، معتمدا على القرآن كأصدق مرجع وفى حدود السيرة لا أتعداها •

ويستهل هيكل كتابه « حياة محمد » بالبحث فى مهد الحضارة الأولى حيث أشرقت الدنيا بنور الرسالات السماوية ثم ما كان من نشأة المسيحية وانتشارها وانقسامها الى فرق متناحرة ، حتى كان الجدل بين أتباع عيسى جدل أيام الانحلال فى كل أمة وعصر • وهو ما أصاب المجوسية نفسها فى فارس حيث انقسمت « آلهة الخير والشر وأتباعها عند المجوس فرقا وطوائف » وبين هاتين القوتين ، قوة المسيحية فى الغرب وقوة المجوس فى الشرق « ظلت شبه الجزيرة وكأنها واحة حصينة آمينة من الغزو الا فى بعض أطرافها ، آمنة من انتشار الدعوة الدينية مسيحية أو مجوسية ، الا فى قليل من قبائلها وبقى العرب على وثنيتهم ، وكانت لهم فى عبادة الأوثان أفانين شتى يصعب على باحث اليوم أن يحيط بها بعد أن قضى الاسلام عليها ونهى عن ذكرها •

وفى هذا المحيط من الصحراء ، وعلى طريق « القوافل المحاذى للبحر الأحمر ما بين اليمن وفلسطين ، وفى واد محصور بين الجبال » تقوم مكة ومن العسير معرفة تاريخ قيامها ، وأكثر الظن أنه يرجع الى ألوف من السنين خلت « وأن أتخذ واديها» موئلا لراحة رجال القوافل بسبب ما كان به من بعض العيون « قبل أن تقوم ، » والراجح

أن اسماعيل بن ابراهيم أول من اتخذها مقاما وسكنا وان ظل تاريخها قبل ذلك غامضا غاية الغموض •

ويأتى هيكل على ماكان من أمر ابراهيم وفراره من قومه بعد «أن ألقوه فى النار وانجاه الله منها» وتجواله بين فلسطين ومصر ، ودخوله بهاجر ومولد اسماعيل « وبعد أن شب اسماعيل وترعرع حملت سارة وولدت اسحاق » . وما كان من قصة الفداء، وغيرة سارة من هاجر وولدها اسماعيل ، حتى حملت ابراهيم على أن يذهب « بهاجر وبابنهاميمما الجنوب حتى وصل الى الوادى الذى تقوم مكة اليوم به » ثم ما كان من تفجر ماء زمزم ، ونزول جرهم بالوادى تسكنه وان قالت بعض الروايات انها كانت تقيم به قبل « أن تجىء هاجر وابنها » .

وينكر «سير وليم موير ، هذه القصة ويراها بعض الاسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الاسلام ليربطوا بها بينهم وبين العرب فى الاشتراك فى أبوة ابراهيم لهم أجمعين ويستدل على روايته بانتشار الوثنية بين العرب ويناقشه هيكل ولا يرى فى أسانيده دليلا على صدق ماذهب اليه ، ويجد سنده فى القرآن وفيما تحدثت به بعض الكتب المقدسة الأخرى عن « رفع ابراهيم واسماعيل القواعد من بيت الله الحرام » ليتوجه الناس فيه الى الله مؤمنين به وحده ، ثم أصبح من بعد ذلك موئل الأصنام وعبادتها مما يقف البحث عن تفسيره الا فروضا ، يحسبها أصحابها تصف ماكان واقعا»

ولم تخل هذه القرون من أنبياء « دعوا قبائلهم فى بلاد العرب الى عبادة اللهوحده،فأبو وأقاموا على وثنيتهم ممن قص القرآن قصصهم ».

واقتضت مكة « لتصير حضرا ، أومايشبه الحضر زمانا طويلا » ويذكر المؤرخون « أنها ظلت على بدواتها الى أن اجتمع أمرها لقصى فى منتصف القرن الخامس للميلاد » ولكن هيكل يذهب الى أنها عرفت حياة الحضر و « الاستقرار أجيالا طويلة قبل قصى » .

وظل أمرها لجرهم بعد أن غلبوا العماليق عليها، حتى وليتها خزاعة « وظلت تتوارثها حتى آلت الى قصى بن كلاب الجد الخامس للنبى » . واليه اجتمعت قريش فبنت بيوتها حول الكعبة وتركوا مكانا كافيا للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين طريقا ينفذ منه الى المطاف وبنى قصى دارالندورة يجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت امرته ليتشاوروا فى أمور بلدهم . وتوارث أبناؤه من عبد الدار ولد قصى الأكبر مناصب الكعبة حتى اقتسمها معهم أبناء عمومتهم من ولد عبد مناف بن قصى الأصغر فبقيت الحجابة واللواء والندوة فى بنى عبد الدار ، وصارت السناية والرفادة لبنى عبد مناف حتى انتهت الى هاشم فدعا قومه الى مثل مادعاهم اليه اليه قصى جده ، وهم الى أن يخرج كل منهم من ماله ما ينفقه هو فى اطعام الحاج أثناء الموسم . واتصل بره وكرمه بأهل مكة واسنن لهم رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام فازدهرت مكة وسمت مكانتها فى شبه الجزيرة « واعتبرت العاصمة المعترف بها » . وخلفالمطلب أخاه هاشما بعد وفاته ، وكان هاشم قد تزوج بسلمى بنت عمرو الخزرجية وأنجب منها طفلا شب مع أمه فى يثرببعد وفاةأبيه هاشم،وذهب المطلب الى سلمى يطلب اليها أن تدفع اليه بابن أخيه وقد بلغ أشده ، وأردف المطلب الفتى على بعيره ودخل به مكة ، فظنته قريش عبدا له جاء به فتصايحت:

عبد المطلب ، قال المطلب : ويحكم انما هو ابن أخى هاشم قدمت به من يثرب ، على أن هذا اللقب غلب على الفتى فدعى به ، ونسى الناس اسم شيبة الذى دعى منذ ولد « وقام عبد المطلب على السقاية والرفادة من بعد عمه المطلب ، وألح عليه الهاتف فى نومه أن يحضر زمزم بعد أن طمها مضاض بن عمرو الجرهمى منذ قرون خلت » وجعل يحفر مستعينا بابنه الحارث حتى نبع الماء وظهرت غزالتا الذهب وأسياف مضاض الجرهمى .

ونذر عبد المطلب لئن ولد له عشرة بنين ، ثم بلغوا معه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة ، وحين أراد أن يفى بنذره وضرب صاحب القداح التى تحمل أسماء بنيه عند هبل فى جوف الكعبة ، فخرج القدح على عبد الله أصغر بنيه وأحبهم اليه ، ولما سار به ينحره حيث كانت تنحر العرب عند زمزم بين أسان ونائلة ، قامت قريش تهيب به ألا يفعل ، ولم يرده عن نذره الا حكم عرافة بيثرب أشارت عليه بأن يضرب القداح بين ولده وعشرة من الابل يزيدها حتى ترضى الآلهة وتخرج القداح على الابل وخرجت القداح على مائة من الابل ضرب عليها ثلاثا فكانت تخرج على الابل كل مرة فاطمأن عبد المطلب الى رضا ربه ونحرت الابل ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا سبع .

وعلا مكان البيت فى مكة بين العرب حتى أقام أبرهة الأشرم بيتا باليمن ليغنى العرب عن بيت مكة «فلم يغن ذلك العرب عن بيت مكة ولا هو صرفهم عن البلد الحرام فأراد ليهد من بيت مكة وتحرك نحوها فى جيش لجب تقدمه على فيل عظيم ركبه » فلما كان على أبوابها وعجز أهلها عن حربه وهجروا بلدهم الى شعاب الجبل كما نصحهم عبد المطلب ، وأمسك عبد المطلب بباب الكعبة يدعو آلهته ويستشيرها قبل أن يذهب مع قومه، فلما خلت منهم مكة وآن لأبرهة أن يدخلها ليتم ما اعتزم من هدم البيت .

وكان وباء الجدرى قد تفشى بالجيش وبدأ يفتك به ، وكان فتكه ذريعا لم يعهد من قبل قط ، فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة الى اليمن ، وبلغ ابرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض « وصار عام الفيل تاريخا لأهل مكة » وقدسه القرآن بذكره : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » .

وارتفعت مكانة مكة وازداد بيتها علوا ، وسرت هواتف عن نبى يظهر فى بلاد العرب ، وكان عبدالله ابن عبد المطلب قد شب فتى وسيما جميل الطلعة تتمناه أوانس مكة ونساؤها ، وزادهن اعجابا حديث الفداء والمائة من الابل التى لم يرض هبل بما دونها فداء له . لكن القدر كان قد أعده لأكرم أبوة عرف التاريخ ، وقد أعد آمنة بنت وهب لتكون أما لابن عبد الله ، ولذلك تزوجها ، ولم تك الا أشهر بعد زواجه منها حتى مات ، لم ينجه من الموت فداء أيا كان نوعه ، وبقيت آمنة بعد ذلك لتلد محمدا ولتموت ومحمد ما يزال طفلا .

واختلف المؤرخون على تاريخ مولده ، وان أخذ « الجمهور على أنه ولد فى الثانى من شهر ربيع الأول ، وهو قول ابن اسحق وغيره » وترضعه حليمة بنت أبى ذويب السعدية ، « وكانت تحدث

أنها وجدت فيه منذ أخذته أى بركة : سمنت غنمها وزاد لبنها وبارك الله لها فى كل ما عندها » . وأقام محمد مع حاضنته فى البادية وحينذاك وقبل أن يبلغ الثالثة تقع الرواية التى يقصونها « قصة شق الصدر ، وهى قصة لايطمئن اليها المستشرقون ـ كما يقول هيكل ـ كما لايطمئن اليها كذلك جماعة من المسلمين يرونها ضعيفة السند ، وانما يدعو المستشرقين ، ويدعو المفكرين من المسلمين الى هذا الموقف من ذلك الحادث أن حياة محمد كانت كلها انسانية سامية ، وأنه لم يلجأ فى اثبات رسالته الى ما لجأ اليه من سبقه من أصحاب الخوارق ، وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة النبى العربى كل مالا يدخل فى معرفة العقل ، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع مادعا اليه القرآن من النظر فى خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن المشركين أنهم لايفقهون أن ليست لهم قلوب يعقلون بها » .

ويمضى هيكل فى سرد حياة النبى فى طفولته بالبادية وكفالة جده عبد المطلب له ووفاة آمنة بالأبواء فى أبوتها الى مكة بعد أن صحبته لزيارة أخوال جده من بنى النجار ولرؤية البيت الذى مات أبوه فيه ، والمكان الذى دفنت به وزاد يتمه فى اعزاز عبد المطلب اياه ومات عبد المطلب فى الثمانين من عمره ومحمد لايزال فى الثامنة ،وحزن محمد لموت جده حزنه لموت أمه ، حزن حتى كان دائم البكاء وهو يتبع نعشه الى مقره الأخير وحتى كان دائم الذكر من بعد ذلك به ، مع مالقى بعد فى كفالة عمه أبى طالب من عناية ورعاية ومن حماية امتدت الى مابعد بعثه ورسالته . فلما كان فى الثانية عشرة صحب عمه فى رحلة الى الشام ، وتروى كتب السيرة أنه لقى فيها الراهب «بحيرى» وأن الراهب رأى فيه أمارات النبوة . ونصح الى أهله ألا يوغلوا به بلاد الشام خوفا عليه من اليهود أن يعرفوا منه هذه الامارات فينالوه بالأذى . وعرف محمد حمل السلاح اذ وقف الى جانب أعمامه فى «حرب الفجار» وقيل انه كان «ابن خمس عشرة سنة ، وقيل : كان بن عشرين » حينذاك كما قيل انه كان يجمع السهام لأعمامه ، وقيل « بل اشترك فيها ورمى السهام بنفسه » .

وانصرف محمد الى التفكير والتأمل فى كل ما يسمع وما يقع عليه بصره ، وزاده انصرافا الى التفكير والتأمل اشتعاله برعى الغنم سنى صباه تلك ، وارتفع فى أعماله وتصرفاته عن كل مايمس هذا الاسم الذى أطلق عليه بمكة وبقى له (الأمين) وحين بلغ الخامسة والعشرين ، اشتغل بالتجارة لخديجة فزادت أموالها وربحت ، وعلقت به لما سمعت عن شمائله ولما أنسته بنفسها من خصاله ، فاختارته زوجا « وهنا تبدأ صفحة جديدة من حياة محمد : تبدأ حياة الزوجية والأبوة ، الزوجية الموفقة ، الزوجية الموفقة الهنية من جانبه وجانب خديجة جميعا ، والأبوة التى تعرف من الآلام لفقد الأبناء ما عرف محمد فى طفولته لفقد الآباء » .

وسارت الحياة بمحمد مع خديجة ، يختلط بأهل مكة ويأخذ معهم بنصيب فى الحياة العامة على ماكان يفعل من قبل فلما أخذوا فى تجديد بناء الكعبة بعدما أصابها من سيل الجبال الذى صدع بنيانها وقامت كل قبيلة على بناء جانب من جوانبها وآن لهم أن يضعوا الحجر الأسود المقدس فى مكانه فى الجانب الشرقى اختلفوا على من يكون

له هذا الشرف حتى كاد الخلاف يجر الى حرب تقع بينهم ، فنصحهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى أن يجعلوا الحكم فيما بينهم أول من يدخل من باب الصفاء فلما رأوا محمدا أول من دخل قالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه ففكر فيما قصوا عليه من قصتهم قال : هلم الى ثوبا ، فأتى به فنشره وأخذا الحجر فوضعه بيده فيه ، ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة من أطراف هذا الثوب ، فحملوه جميعا الى مايحاذى موضع الحجر من البناء ، ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه فى موضعه ، وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر .

« تعاقبت السنون ومحمد يشارك أهل مكة فى حياتها العامة ، ويجد فى خديجة خير النساء حقا : الودود الولود التى كل نفسها له » و «كان من عادة العرب اذ ذاك أن ينقطع مفكروهم للعبادة زمنا .. يتقربون الى آلهتهم بالزهد والدعاء .. وكانوا يسمون هذا الانقطاع للعبادة التحنف أو التحنث » وعلى فرسخين من شمال مكة وفى غار بأعلى جبل حراء ، كان محمد ينقطع « طوال شهر رمضان من كل سنة يقيم به مكتفيا بالقليل من الزاد يحمل اليه ، ممعنا فى التأمل والعبادة ، بعيدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتمسا الحق وحده » حتى جاءته الرؤيا الصادقة ، « اذ ذاك آمن أن قومه قد ضلوا سبيل الهدى ، وأن حياتهم الروحية قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام وما اليها من عقائد متصلة بها ليست دونها ضلالا » .

« وفيما هو نائم بالغار يوما جاءه ملك وفى يده صحيفة فقال له : اقرأ . فأجاب مأخوذا : ما أقرأ فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله ويقول له : اقرأ قال محمد ما أقرأ . فأحس كأن الملك يخنقه كرة أخرى ، ثم يرسله ويقول له : اقرأ . قال محمد وقد خاف أن يخنقه مرة أخرى — : ماذا أقرأ ؟ قال الملك : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم) فقرأها وانصرف الملك عنه وقد نقشت فى قلبه » .

ورجع محمد الى أهله فزعا . « ودخل على خديجة وهو يقول : زملونى ، فزملته وهو يرتعد كأن به الحمى ، فلما ذهب عنه الروع نظر الى زوجه نظرة العائذ المستنجد وقال : ياخديجة مالى؟ وحدثها بالذى رأى ، وأفضى اليها بمخاوفه أن تخدعه بصيرته أو أن يكون كاهنا . وكانت خديجة ، كما كانت أيام تحنثه فى الغار ومخاوفه أن تكون به جنة ، ملك الرحمة وملاذ السلام لهذا القلب الكبير الخائف الوجل ، لم تبد له أى خوف أو ريبة ، بل رنت اليه بنظرة الاكبار وقالت : أبشر يابن عم ، واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده أنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، ووالله لايخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »

وانطلقت خديجة الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، تقص عليه ماحدثها محمد به وتخبره بما رأى وسمع « طرق مليا ثم قال قدوس قدوس والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وانه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت » . وكان ورقة قد كفر بالأوثان وتنصر وقرأ الانجيل ونقل بعضه الى العربية .

ولما عادت خديجة ألفت محمدا مايزال نائما ، « وفيما

هو فى هدأة نومه اذا به اهتز وثقل نفسه وبلل العرق جبينه يقوم ليستمع الى الملك يوحى اليه : « يأيها المدثر قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » وحين طلبت اليه خديجة أن يهدأ ويستريح، كان جوابه أوكما قال؟ انقضى ياخديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم الى الله والى عبادته ، فمن‌ذا أدعو ومن ذا يستجيب لى ؟ فجهدت خديجة أن تهون عليه الأمر وتثبته ،وسارعت فقصت عليه نبأ ورقة وما حدثها به ، ثم أعلنت اليه فى شوق ولهف اسلامها له وايمانها بنبوته » .

وخرج محمد يوما للطواف بالكعبة فلقيه ورقة ابن نوفل ، فلما قص عليه أمره قال ورقة : «والذى نفسى بيده انك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبن ، ولتؤذين ، ولتخرجن ، ولتقاتلن ولئن أدركت‌ذلك اليوم لانصرن الله نصرا يعلمه » .

وعاده الوحى بعد فتور وعلمه الصلاة ، فصلى وصلت معه خديجة ، وآمن على فكان أول رجل أسلم ، وأسلم أبو بكر وبايعه على الاسلام عثمان ابن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، ثم أسلم بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون‌غيره من أهل مكة . وظلت الدعوة سرا ثلاث سنوات « ازداد الاسلام فيها انتشارا بين أهل مكة ، ونزل على محمد فيها من الوحى مازاد المسلمين ايمانا وتثبيتا » . ثم أمره الله أن يظهر ماخفى من أمره ، وأن يصدع بما جاءه منه ، ونزل الوحى (وأنذر عشيرتك الأقربين) .

ودعا محمد عشيرته ، وانتقل بدعوته الى أهل مكة جميعا ، ولقيه بعض أهله وبعض من قريش بالأذى واشتد أذاهم بمن أسلم فلا يزيده ولا يزيد أتباعه ذلك الا ايمانا ولما اشتد الأذى بالمسلمين نصح اليهم أن يذهبوا الى بلاد الحبشة المسيحية « فان بها ملكا لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

وكان عمر بن الخطاب « من أشد قريش أذى للمسلمين ووقيعة فيهم » ثم أسلم ولاسلامه قصة ترد بها كتب السيرة ويقصها هيكل بما فيها من‌جمال وروعة ، ويعتز الاسلام باسلامه وهنا يرد حديث الفرانيق الذى أورده ابن سعد فى طبقاته الكبرى، والطبرى فى تاريخ الرسل والملوك ، كما أورده كثيرون من المفسرين المسلمين ، وكتاب السيرة والذى أخذ به جماعة المستشرقين ووقفوا يؤيدونه طويلا، وحديث الغرانيق ، أن محمدا لمارأى تجنب قريش اياه وأذاهم تمنى فقال ؟ ليته لا ينزل على شىء ينفرهم منى وقارب‌قومه ودنا منهم ودنوا منه، فجلس يوما فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى) فقرأ بعد ذلك : تلك الغرانيق العلى . وأن‌شفاعتهن لترتجى . ثم مضى وقرأ السورة كلها وسجد فى آخرها .

ويرى هيكل أن الحديث « ظاهر التهافت ، ينقضه قليل من التمحيص ، وهو بعد حديث‌ينقض ما لكل نبى من العصمة فى تبليغ رسالات ربه » ويعجب كيف أخذ به‌كتاب السيرة وبعض المفسرين المسلمين ، ولذلك لم يتردد ابن اسحاق حين‌سئل عنه فى أن قال انه من وضع الزنادقة » . ويناقش ما ذهب اليه «سير وليم موير» من الاستشهاد على

صحته بعودة مهاجرى الحبشة حين تناهى خبر الصلح بين محمد وقريش ، فيقول ان عودة مهاجرى الحبشة حين تناهى خبر الصلح بين محمد وقريش ، فيقول ان عودة مهاجرى المسلمين الى الحبشة كانت لسببين أولهما ، اعتزاز المسلمين باسلام عمر ، والثانى أن عمر لم يأبه بقريش وتحداها وصلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه فخشيت قريش أن يثير اذاها للمسلمين حربا أهلية فهادنت محمدا حتى تفكر فى وسيلة أخرى لمحاربته لا تجر عليها هذا الخطر « وهذا هو ما اتصل بالمهاجرين الى الجيش ودعاهم الى التفكير فى العودة الى مكة » ويمضى فى تفسير الآيات التى استند اليها المفسرون فى اثبات حديث الغرانيق وبردها الى الحقيقة من معناها « فقصة الغرانيق تجرى بأن محمدا ركن الى قريش بالفعل ، وأن قريشا فتنته بالفعل فقال على الله ما لم يقل ، والآيات هنا تعتبر ان الله ثبته فلم يفعل (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا) فاذا ذكرت كذلك أن كتب التفسير وأسباب النزول جعلت لهذه الآيات موضعا غير مسألة الغرانيق ، رأيت أن الاحتجاج بها فى مسألة تتنافى وعصمة الرسل فى تبليغ رسالاتهم وتتنافى وتاريخ محمد كله ، احتجاج متهافت ، بل احتجاج سقيم كما يسند أيضا الى تفنيد الشيخ محمد عبده فى أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق لم يرد فى نظمهم ولا فى خطبهم ويقطع أخيرا بأن ماعرف من صدق محمد وأمانته طوال حياته لايحمله « على أن يقول على ربه مالم يقل ».

وتستند صحة دعاية قريش ضد محمد ودعوته ، ولا يمنعهم من متابعته — كما يثبت هيكل — ايمانهم بأنهم على حق ، بل « حرص على نظام قديم ، أفاء الحظ عليهم فى ظله من بسطة المال والجاه ما يحرصون عليه ويحاربون الحياة كلها دونه » . الى جانب ما كان من « حسد وتنافس وتنازع » أن يختص محمد بهذا الشرف دونهم ، ثم ما كان من فزع قريش « من البعث ومن عذاب جهنم يوم الحساب » اذا كانوا فى لهوهم يزعمون ان التقرب الى أصنامهم يكفر من سيئاتهم وذنوبهم فضلا عن ريبتهم فيما « وعد الله المتقين من جنة عرضها السموات والأرض » تعلقا منهم بالعاجلة ، وضيقا بالانتظار الى يوم الجزاء ولم تكن تؤمن بيوم الجزاء .

وكانت قريش قد تعاقدت على مقاطعة محمد وحصار المسلمين ، احتمى محمد وأهله وأصحابه خلالها فى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة يعانون الحرمان ألوانا « حتى قام من قريش من لم يرض بذلك ودعا الى نقض الصحيفة » وقام من يشقها فوجد «الأرض قد أكلتها الا ماتحتها (اللهم باسمك) ورجع محمد وصحبه من الشعب الى مكة ، وأخذ من جديد يذيع دعوته فى مكة وفى القبائل التى تجيء اليها فى الأشهر الحرم » .

ولم تمض الا شهور على نقض الصحيفة حتى فجع محمد فى أبى طالب وخديجة دراكا ، فاشتد ايذاء قريش له بعد أن فقد هذين النصيرين ، حتى أن سفيها من سفهاء مكة « اعترضه ورمى على رأسه ترابا» وذهب يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه ويرجوا سلامهم لكنه رجع منهم بشر جواب ، وفى هذه الفترة « كان الاسراء والمعراج» وليلتها كان محمد فى بيت ابنة عمه هند ابنة أبى طالب ، وكنيتها أم هانىء ، وقد كانت هند تقول: أن رسول الله نام عندى تلك الليلة فى بيتى فصلى

العشاء الآخرة ثم نام ونمنا فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هانيء لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رايت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس، فصليت فيه ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين ، فقلت له : يانبى الله لاتحدث بهاالناس فيكذبوك ويؤذوك . قال والله لأحدثنهم به ، ويذهب بعض المتكلمين الى أن الاسراء من مكة الى بيت المقدس كان بالجسد ، والبعض الآخر الى أنه كان بالروح ، وآخرون الى أنه كان بالروح والجسد معا .

ويرجع هيكل الى حديث درمنجم وقد وصفها فى عبارة رائعة طلية ، نقلها بدوره الى العربية، كما رجع الى حديث ابن هشام والى غير ابن هشام من كتب السيرة ومن كتب التفسير ، ولا يجد فيها جميعا مجالا للقول فسواء كان الاسراء والمعراج بالروح أو بالجسد أو بكليهما معا ، ولكنه يسأل عن حكمة الاسراء والمعراج ، ويدلى برأى لا يدرى أسبقه اليه أحد أم لم يسبق . ففيهما ــ كما يقول ــ « فى حياة محمد الروحية معنى سام غاية السمو.. فهذا الروح القوى قد اجتمعت فيه ساعة الاسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كما لها ، لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبيا محدودا بحدود قوانا المحسة والمدبرة والعاقلة ، تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد واجتمع الكون كله فى روحه ، فوعاه منذ أزله الى أبده وصوره فى تطور وحدته الى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق فى مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة » .

«والاسراء بالروح هو فى معناه كالأسراء والمعراج بالروح جميعا سموا وجمالا وجلالا .فهو تصوير قوى للوحدة الروحية من أذل الوجود الى أبده ، فهذا التعريج على جبل سيناء حيث كلم الله موسى تكليما وعلى بيت لحم ولد عيسى ، وهذا الاجتماع الروحى ضمت الصلاة فيه محمدا وعيسى وموسى وابراهيم مظهر قوى لوحدة الحياة الدينية على أنها من قوام وحدة الكون فى تطوره القائم الى الكمال»

ويرى هيكل فى العلم الحديث ، ما يقر الاسراء بالروح ويقر المعراج بالروح ، كانتقال الاصوات عبر الاثير ، ونظريات قراءة الافكار « مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال ، ولم يكن العرب من أهل مكة ليستطيعوا ادراك هذه المعانى لذلك ما لبث محمد حين حدثهم بأمر اسرائه أن وقفوا عند الصورة المادية من أمر هذا الأسراء وامكانه أو عدم امكانه ، وحتى ساور اتباعه والذين صدقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقوله » . وانصرف جماعة منهم عن متابعته بعد ان اتبعوه زمنا طويلا ، وازدادت مساءات قريش له وللمسلمين حتى ضاقوا بها ذرعا « فما زاده الايمان بالحق الا سموا وايمانا ، وظل أشد ما يكون فى عزلته ثقة بنصر الله . وجاءته تباشير الفوز » آتية طلائعها من ناحية يثرب . حين اسلم جماعة منها وعادوا الى قومهم فذكروا لهم اسلامهم ، وما استدار العام وجاء موعد الحج حتى التقى به اثنا عشر رجلا منهم بايعوه بيعة العقبة الأولى .. وانتشر الاسلام بين أهل يثرب فحمل محمدا على التفكير فى الهجرة اليها ، وتلتها « بيعة العقبة الثانية » وفيها طلب محمد منهم « أن يمنعوه فيما يمنعون منه نساءهم

وأبناءهم » فمد البراء يده يبايعه على ذلك وقال :
ـ بايعنا بارسول الله ، فنحن والله ابناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراعن كابر .

وأمر النبى أصحابه أن يلحقوا الانصال بيثرب على ان يتركوا مكة متفوقين حتى لا يثيروا ثائرة قريش عليهم وتفزع قريش لهجرة المسلمين ،وتخشى هجرة محمد اليها فتأتمر به لقتله فكانت هجرته الى المدينة بداية عهد وتاريخ فى صفحة الاسلام .سكن بعدها المسلمون الى دينهم وفرضت الزكاة وفرض الصيام وقامت الحدود « وانفسح المجال أمام محمد ليعلن تعاليمه وليكون بذاته وبتصرفاته المثل الأسمى لهذه التعاليم وليضع بذلك حجر الأساس للحضارة الاسلامية » .

ويرى هيكل ان حجر الأساس هذا « هو الأخاء الانسانى ، اخاء يجعل المرء لا يكمل ايمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وحتى يصل الاخاء الى غاية البر والرحمة من غير ضعف ولا استكانة وتركت تعاليمه هذه وترك مثله وقدوته فى النفوس أعمق الأثر ، حتى لقد أقبل كثيرون على الاسلام وزاد المسلمون فى المدينة شوكة وقوة » .

وأخذ يهود المدينة ـ رغم ما بينهم وبين محمد من عهد ـ يكيدون له وللمسلمين « وبدأت حرب جدل بينه وبينهم أشد لددا وأكبد مكرا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش بمكة » حتى ضاق محمد بهم ذرعا ، واشترك نصارى نجران فى هذا الجدل وشهدت يثرب لقاء الأديان الثلاثة، وألقى عليهم محمد كلمة الحق من ربه : « قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وما أن استقر للمسلمين المقام بالمدينة بعد أشهر من الهجرة ، حتى بدأ تحنانهم الى مكة يزداد ، وبدأوا يفكرون فيمن تركوا وماتركو بها وما أنزلت قريش بهم من الأذى « مما حمل النبى على ارسال السرايا والغزوات تتعرض لقريش وتسعى الى الانتقام منهم وهو رأى يذهب اليه المؤرخون من المسلمين ، بينما يرى المستشرقون مع مجاراتهم لمؤرخى المسلمين أن محمدا كان يقصد بهذه السرايا الى « نهب تجارة القوافل » وان النهب كان بعض طباع أهل البادية ، وان أهل المدينة انما أغرتهم الغنيمة والسلب باتباع محمد » وهذا كلام مردود ـ كما يقول هيكل ـ لأن أهل المدينة كأهل مكة لم يكونوا أهل بادية يعيشون على السلب والنهب وانهم فوق ذلك كان فى طبعهم مافى طبع من يعيشون على الزراعة من حب الاستقرار .. أما المهاجرون فكان من حقهم أن يستخلصوا من أيدى قريش ما أخذت من أموالهم ، لكنهم لم يستعجلوا ذلك قبل بدر ، فلم يكن هذا الدافع للسرايا والغزوات الأولى ، ثم ان القتال لم يشرع فى الاسلام ولم يقم به محمد وأصحابه لهذه الغاية البدوية التى يتوهم المستشرقون ، وانما شرع وقام به محمد وأصحابه حتى لايفتنهم عن دينهم أحد . وحتى يكون لهم من حرية الدعوة له مايشاءون ونعله « رمى من وراء السرايا والرحلات المسلمة الى غرض آخر ، لعله رمى الى ارهاب اليهود المقيمين فى المدينة وعلى مقربة منها » .

ويمضى هيكل فيقول « وليس معنى هذا أن الاسلام كان يومئذ ينكر القتال دفاعا عن النفس ودفاعا عن العقيدة دفعا لمن يريد فتنة صاحبها عنها . كلا : بل ان الاسلام ليفرض هذا الدفاع ، وانما معناه ان الاسلام كان يومئذ ، كما هو اليوم وكما

كان دائما ، ينكر حرب الاعتداء : (ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين) واذا كان لدى المهاجرين يومئذ مايبيح لهم اقتضاء ماحجزت قريش من أموالهم عند هجرتهم ، فان دفع فتنة المؤمنين عن دينهم كان أكبر عند الله ورسوله ، وكان الغاية الأولى التى شرع من أجلها القتال » .

ويرد على المبشرين فيما يقولون من أن المسيحية تنكر القتال على اطلاقه ، ويرى فى تاريخ المسيحية سلسلة من الحروب « خضبت الأرض جميعا بالدماء باسم السيد المسيح » فهل كان البابوات خلفاء المسيح وهم يباركون الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس هراطقة وكانت مسيحيتهم زائفة ؟ أم كانوا أدعياء جهالا لايعرفون أن المسيحية تنكر القتال على اطلاقه ؟ فاذا كانوا يحتجون بأن العصور الوسطى عصور الظلام «فقد وقف اللورد اللنبى ممثل الحلفاء انكلترا وفرنسا وايطاليا ورومانيا وأمريكا ، يقول فى بيت المقدس فى سنة ١٩١٨ حين استيلائه عليه فى أخريات الحرب الكبرى : اليوم انتهت الحروب الصليبية»

« والاسلام ليس دين وهم وخيال ، ولا هو دين يقف عند دعوة الفرد وحده الى الكمال ، انما الاسلام دين الفطرة التى فطر الناس جميعا عليها أفرادا وجماعات ، وهو دين الحق والحرية والنظام ومادامت الحرب فى فطرة الناس ، فتهذيب فكرتها فى النفوس وحصرها فى أدق الحدود الانسانية هو غاية ماتحتمل فطرة البشر وما يحقق للانسانية اتصال تطورها فى سبيل الخير والكمال ، وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون الا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأى والدعوة اليه وأن ترعى فيها الحرمات الانسانية تمام الرعاية وهذا ماقرر الاسلام على مارأينا وما سنرى من بعد ، وهذا مانزل به القرآن وضعناه وسنضعه تحت نظر القارىء فى الأحوال والمناسبات التى نزل فيها » .

ولما أيقن محمد أن لم يبق فى مصانعة قريش أو الاتفاق معها رجاء كانت غزوة بدر الكبرى حين خرج أبو سفيان فى أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة فى تجارة كبيرة يقصد الشام ، وانتظرها المسلمون فى عودتها عند ماء بدر حيث اقتتل الطرفان ، وأنجز الله وعده للمسلمين بالنصر « واستقر بها الأمر للمسلمين من بعد فى بلاد العرب جميعا ، والتى كانت مقدمة وحدة شبه الجزيرة فى ظلال الاسلام ومقدمة الامبراطورية الاسلامية المترامية الأطراف ، والتى أقرت فى العالم حضارة ماتزال ولن تزال ذات أثر عميق فى حياته » .

وأجلى محمد بنى قينقاع عن المدينة فخلت من اليهود ، فكان تصرفا سياسيا « آية فى الدلالة على الحكمة وبعد النظر وهو مقدمة لم يكن بد منها للآثار السياسية التى ترتبت بعد ذلك على خطة محمد . فليس شىء أضر على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها » ثم كان يوم أحد ، وكر فيها «خالد بن الوليد» ولما يزل على الشرك على رماة المسلمين بعد أن وثقوا من النصر وخالفوا أمر النبى . وانطلق بعضهم الى الغنائم فكادت تكون هزيمة بعد نصر ، لولا ثبات المسلمين حول النبى ، وحسبت قريش نفسها انتقمت لبدر ، وصاح أبو سفيان « يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل » .

وحارب المسلمون بنى النضير حتى أجلوهم عن المدينة وآن لهم أن يركنوا «الى شىء من الطمأنينة» بعد غزوتى غطفان ودومة الجندل ، الا أن اليهود

أخذوا يؤلبون العرب على محمد واتصلوا بقريش يحملونهم على محمد فكانت غزوة الأحزاب وحصار المدينة وحفر الخندق حولها ، ونقض بنو قريظة عهدهم مع المسلمين وانضموا الى الأحزاب وطال الحصار حتى كان ليل فعصفت ريح شديدة، وهطل المطر غزيرا ، وقصف الرعد ، ولمع البرق، واشتدت العاصفة فاقتلعت خيام الأحزاب وكفأت قدرتهم ، وأدخلت الرعب فى نفوسهم فنادوا بالفرار «وكفى الله المؤمنين شر القتال » . ولما يجد النبى بدا من غزو بنى قريظة ، فضرب الحصار عليها ، حتى رضوا حكما بينهم وبين محمد هو سعد بن معاذ حليفهم ، فحكم فيهم أن تقتل المقاتلة ، وتقسم الأموال ، وتسىء الذرية والنساء ويرى هيكل أن دم بنى قريظة معلق فى عنق حيى ابن أخطب ، وان كان قد قتل معهم ، فهو قد حنث فى العهد ، وألب العرب واليهود وبنى قريظة على المسلمين ، فالحكم الذى أصدره . سعد بن معاذ على قسوته وشدته انما كان متأثرا فيه بالدفاع على قسوته وشدته انما كان متأثرا فيها بالدفاع عن النفس واعتباره بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين .

«واستتب الأمر لمحمد والمسلمين بعد غزوة الخندق وبعد القضاء على بنى قريظة ، استتبابا جعل العرب تخافهم أشد الخوف » حتى أغار عيينة بن حصن» على أطراف المدينة فنهب ابلا كانت ترعى بظاهرها بعد أن قتل راعيها وحمل امرأته ، وانصرف برجاله « يحسبون أنهم من اللحاق بمنجاة » ولكن المسلمين انطلقوا وراءهم ، فاستخلصوا شطر الابل منهم ونجت المرأة المؤمنة ، وكانت قد « نذرت ان أنجتها الناقة لتنحرنها قربانا الى الله ، فلما أخبرت النبى بنذرها قال : بئس ماجزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها ، انه لا نذر فى معصية الله ولا فيما لاتملكين ، ثم كانت غزوة بنى المصطلق وماكان ينشب من شقاق فى صفوف المسلمين حسمه الرسول بأحسن مايكون عزيمة وحزما « وفيها كان حديث الأفك عن عائشة حديثا كان موقفها منه وهى لما تزل فى السادسة عشرة موقف ايمان وقوة تحطمت على جنباتها كل القوى ، وعنت لجلالها كل الوجوه » .

وفى خلال ذلك كان محمد يقوم « بأمر ربه ، باتمام التنظيم الاجتماعى للجماعة الاسلامية الناشئة تنظيما كان يتناول عدة الوف يومئذ ليتناول الملايين ومئات الملايين من بعد ذلك ، ويقوم باتمام هذا التنظيم الاجتماعى فى دقة وحسن سياسة ، يوحى اليه ربه منه مايوحى ، ويقر هو ما يتفق مع أمر الوحى وتعاليمه ، ويضع من تفصيل ذلك ما كان موضع التقديس من أصحابه يومئذ وما ظل من بعد ذلك قائما على الأجيال والدهور لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

و « فى الفترة التى وقعت فيها (تلك الأحداث) تزوج محمد زينب بنت خزيمة ، ثم تزوج أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة ، ثم تزوج زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة ، وزيد هذا هو الذى تبناه محمد واعتقه منذ اشتراه يسار لخديجة هاهنا يصيح المستشرقون ويصيح المبشرون : أنظروا : لقد انقلب محمد الذى كان بمكة داعية قناعة وزهد وتوحيد ورغبة عن شهوات هذه الحياة الدنيا ، رجل شهوة يسيل منظر المرأة لعابه، ولا يكيفه ثلاث نسوة فى بيته ، بل يتزوج أولئك الثلاث اللاتى ذكرنا ، ويتزوج من بعدهن ثلاثا

أخريات غير ريحانه ، وهو لا يكفيه ان يتزوج ممن لابعولة لهن ، بل هـو يشغف حبا بزينب بنت جحش وهى تحت زيد بن حارثة مولاه ، لغيرشىء الا أنه مر ببيت زيد وهو غائب فاستقبلته زينب وكانت فى ثياب تبدى محاسنها ، فوقع منها فى قلبه شىء لجمالها ، فقال : سبحان مقلب القلوب ! ثم كرر هذه العبارة ساعة انصرافه ، فسمعتها زينب ، ورأت فى عينيه وهج الحب فاعجبت بنفسها وأبلغت زيدا ما سمعت ، فذهب من فوره الى النبى يذكر له استعداده لتسريحها ، فقال له : امسك عليك زوجك واتق الله ، لكن زينب لم تحسن من بعد عشرته فطلقها ، وأمسك محمد عن زواجها ، وقلبه فى شغل بها حتى نزل قوله تعالى (واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا) اذ ذاك تزوجها فاطفأ بزواجها لاذع حبه ومتوهج غرامه « ويطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم العنان ، حتى ليصور بعضهم زينب ساعة رآها النبى وهى نصف عارية أو تكاد ، وقدانسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يكنه من كل معانى الهوى وليذكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب وكانت ممددة على فراشها فى ثياب نومها ، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها « هذه الصور مما أبدعها الخيال تراها: فى موير وفى در منجم وفى واشنطن آرفنج ، وفى لا منسى ، وغيرهم من المستشرقين والمبشرين ، ومما يدعو الى أشد الأسف ان هؤلاء جميعا اعتمدوا فى روايتهم على ماورد فى كتب السيرة والكثير من الحديث ، ثم أقاموا على ما صوروا قصورا من الخيال فى شأن محمد وصلته بالمرأة ، واستدلوا على ذلك بكثرة أزواجه حتى بلغن تسعا فى القول الراجح ، وحتى بلغن أكثر من ذلك فى بعض الروايات » .

ويجيب هيكل على هذه الأقوال ، لا بالتسليم بأن « القوانين التى تجرى على الناس لاسلطان لها على العظماء فأولى أن لايكون لها سلطان على المرسلين والأنبياء » مستشهدا عليها بما كان من مولد عيسى حين « خرج بمولده وبحياته على قوانين الطبيعة وسننها جميعا » وبما كان من قتل موسى لرجل وهو « قتل محرم فى غير حرب ولا شبه حرب ، مخالفا للقانون ، ومع ذلك لم يخضع موسى لقانون ولم يطعن ذلك فى نبوته ولا فى رسالته » ولا بالتعقيب عليها بأنها لا مطعن فيها على عظمة محمد أو على نبوته ورسالته « ولكن بدحضها بالرغم مما وقع فيه بعض الكتاب المسلمين فى بعض العصور » ، حين « أباحوا لأنفسهم » هذا القول ، وأن يقدموا لخصوم الاسلام عن حسن نية هذه الحجة فذلك لأنهم انحدر بهم التقليد الى المادية ، فأرادوا أن يصوروا محمدا عظيما فى كل شىء ، عظيما حتى فى شهوات الدنيا ، وهذا تصور خاطىء ينكره تاريخ محمد أشد انكار ، وتأبى حياته كلها أن تقره » .

ويذهب فى دحضه الى ماكان من حياة محمد فى شبابه ، وما كان من حياته مع خديجة وحدها ثمانية وعشرين عاما حتى تخطى الخمسين « لم يعرف عنه خلالها أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء » فمن غير الطبيعى أن نراه وقد تخطى الخمسين أن

يحب زينب بنت جحش هذا الحب وأن يجمع فى خمس سنوات أكثر من سبع زوجات وفى سبع سنوات تسع زوجات ، وذلك كله بدافع الرغبة فى النساء ومن العجيب أن تنجب خديجة ولا ينجب غيرها من نسائه « كلهن بين شابة فى مقتبل العمر لا يمنع مانع من ناحيتها ولا من ناحيته أن تحمل وأن تلد، وبين امرأة كملت أنوثتها فتخطت الثلاثين أو تخطت الأربعين ، وكان لها ولد من قبل ، فكيف تفسر هذه الظاهرة العجيبة من ظاهرات حياة النبى ، هذه الظاهرة التى لا تخضع للقوانين الطبيعية فى تسع نسوة جميعا » ثم يقول ان التاريخ ومنطق الحوادث يكذب المبشرين والمستشرقين فى شأن تعدد زواج النبى ، فقد تزوج سودة بنت زمعة ، وكانت زوجا لرجل من السابقين الى الاسلام الذين احتملوا فى سبيله الأذى ليعولها وليرتفع بمكانتها الى أمومة أم المؤمنين « أما عائشة وحفصة فكانتا ابنتى وزيريه أبى بكر وعمر ، أراد أن» يرتبط واياهما برباط المصاهرة كما ارتبط » بعثمان وبعلى برابطة المصاهرة بتزويجه ابنتيه منهما » « واذا صح القول فى عائشة وفى حبه اياها ، فانما ذلك حب نشأ بعد الزواج لا حينه . « وكما تزوج من سوده بنت زمعة تزوج من زينب بنت خزيمة ومن أم سلمة » ليتعلم المجاهدون من المسلمين أنهم اذا استشهدوا فى سبيل الله ، فلن يتركوا وراءهم نسوة وذرية ضعافا يخافون عليهم عيلة » .

أما قصة زينب بنت جحش فينقضها أنها « ابنة أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله عليه السلام» وأنها ربيت بعينه وعنايته ، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى » . ويعرفها قبل أن يتزوجها زيد . وخطبها على مولاه زيد فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون أخته وهى قرشية هاشمية وابنة عمة الرسول « تحت عبد رق اشترته خديجة ثم اعتقه محمد وكان ذلك حقا عارا عند العرب كبيرا » وكان محمد يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة على العصبية ، ولا يرى أن يستكره لذلك امرأة من غير أهله ، فلتكن ابنة عمته هى التى تحتمل هذا الخروج على تقاليد العرب ، ويقبل أخوها ، الا أنها لا تسلس قيادها لزوجها ، وجعلت تفخر عليه بنسبها ، « واشتكى زيد من سوء معاملتها » واستأذن النبى غير مرة فى تطليقها فكان يجيبه « أمسك عليك زوجك واتق الله» . ولكنه لم «يطق معاشرة زينب واباءها عليه فطلقها » . وأراد الشارع أن يبطل ماكانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ومن اعطاء الدعى جميع حقوق الابن ومن اجرائهم عليه أحكامه حتى فى الميراث وحرمة النسب وألا يجعل للمتبنى واللصيق الا حق المولى والأخ فى الدين، ومعنى هذا أنه يجوز للمدعى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمن ادعاه ، ويجوز للمتبنى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمتبناه » . وليكن محمد القدوة فى كل ما أمر الله به « وما ألقى عليه أن يبلغه للناس » وهذه هى « رواية التاريخ الصحيح فى أمر زينب بنت جحش وزواج محمد منها » .

وانقضت ست سنوات منذ هجرة النبى وأصحابه من مكة الى المدينة ، والمسلمون يتشوقون الى الحج الى المسجد الحرام وقد أصبح قبلتهم بعد أن عدل محمد اليه عن المسجد الأقصى وأذن فى الناس بالحج فى شهر ذى القعدة الحرام ودعا المسلمين الى الخروج الى بيت الله آمنين غير مقاتلين .

وبلغ قريش أمر محمد ومن معه ، وفكرت بعد

أن نزل بالحديبية وبعد أن سارت الرسل بينهم وبينه ، عقدا صلح الحديبية ، ورجع المسلمون الى المدينة فى انتظار أن يعودوا الى مكة العام المقبل « وفى عودتهم نزلت سورة الفتح على النبى فلم يبق شك فى أن الحديبية فتح مبين » وبعدها أوفد « رسله الى هرقل وكسرى والمقوقس ونجاشى الحبشة والى الحارث الغسانى والى عامل كسرى فى اليمن » وانتهى الى « ضرورة القضاء قضاء أخيرا على شوكة اليهود فى شبه جزيرة العرب» وبلغت الدعوة الاسلامية من النضج مايجعلها دين الناس كافة . ونزلت الأحكام فى كثير من أمور الاجتماع .

وفى العام التالى تمت عمرة القضاء ، بعد أن جلت قريش عن مكة نزولا على صلح الحديبية وأتم المسلمون الطواف بالكعبة والسعى بين الصفا والمروة ونحروا الهدى عند المروة واعتلى بلال سقف الكعبة مؤذنا لصلاة الظهر وأقاموا بمكة ثلاثة أيام ، وبعدها أسلم خالد بن الوليد ومن بعده عمرو بن العاص وحارس الكعبة عثمان بن طلحة وتبعهم كثير من أهل مكة الى الاسلام . ثم كانت غزوة مؤته مقدمة تبوك والاتجاه الى الشام ، كما كانت الحديبية مقدمة عمرة القضاء ففتح مكة . ولكنها تركت فى نفوس قريش « أنها هزيمةقضت على المسلمين وقضت على سلطانهم .. فلتعد الأمور كما كانت ..ولتعد قريش حربا على المسلمين ومن فى عهدهم من غير أن تخشى من محمد قصاصا » .ولم ير محمد فى نقض قريش لعهد الحديبية مقابل الا فتح مكة . فتجهز له ، وسار جيش المسلمين من المدينة قاصدا مكة حتى انتهى الى ذى طوى، وكان أبو سفيان قد أسلم فجعل له النبى شرفا فى أن « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »

ودخل المسلمون مكة من غير حرب « وامتطى النبى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة فطاف بالبيت سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ،فوقف محمد على بابها، وتكاثر الناس فى المسجد ، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير) ثم سألهم : يامعشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فانتم الطلقاء وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعا » .

وطهرت الكعبة من الصور والأصنام ، وأذن بلال فوقها وأم محمد الناس للصلاة ، وأقام المسلمون بمكة فرحين بنصر الله اياهم ، وهال هوازن ما كان من انتصار المسلمين فسعت الى حربهم حتى لاتدور عليهم الدائرة . واجتمع الى هوازن قطيف ونصر وجشم ، ولكن المسلمين أوقعوا بهم وكان نصرهم مؤزرا بعد أن كادوا يلقون الهزيمة فى حنين اذا أعجبتهم كثرتهم وركبهم الغرور وبعدها فتحت الطائف وعاد النبى الى المدينة « وقد ثبت فى نفوس العرب جميعا ان لم يبق لأحد قبل به فى شبه الجزيرة كلها » وأقبل العرب على الاسلام ، وان فجع محمد بموت ابنته زينب فجيعة لم يعزه عنها غير مولد ابراهيم من مارية القبطية .

واتصل به نبأ من بلاد الروم انها تهيىء لغزو حدود العرب الشمالية فأراد أن يواجهها قبل أن تواجهه ودعا المسلمين لتجهيز الجيش الذى دعى بجيش العمرة ، وانطلق به الى تبوك ، وآثر الروم

الانسحاب ، فعاهد البلاد القائمة على الحدود ، وعاد بالجيش الى المدينة ، وبها تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها وأمن محمد كل عادية عليها . وأقبل سائر أهلها وفودا عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الاسلام ، وكانت هذه الغزوة خاتمة غزوات النبى عليه السلام ، ومن بعدها أقام محمد بالمدينة مغتبطا بما أفاء الله عليه « لم يكدره غير مرض ابنه ابراهيم وموته ، فلم يتعز عن فجيعته فيه الا » بفضل الله وبمتابعة أداء رسالته وبازدياد الاسلام انتشارا فى هذه الوفود التى كانت ما تفتأ تتوارد اليه من كل صوب حتى لقد دعيت هذه السنة التاسعة من الهجرة سنة الوفود وهى السنة التى حج فيها أبو بكر كذلك بالناس » . والتى أعلن فيها على الناس تحريم الكعبة على المشركين .

وفى العام التالى كانت حجة الوداع ، فما ان دعا النبى المسلمين للحج ، « حتى أقبل الناس على المدينة ألوفا ألوفا من كل فج وحدب من المدائن والبوادى ، من الجبال والصحارى ، من كل بقعة من هذه البلاد العربية .. وحول المدينة ضربت الخيام لمائة ألف أو يزيدون جاءوا تلبية لدعوة نبيهم رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم السلام » وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة . سار النبى وأخذ نساءه جميعا معه كل فى محفتها ، سار وتبعه هذا الجمع الزاخر ، مناديا والمسلمون من ورائه : «لبيك اللهم لبيك . لا شريك لك لبيك ، الحمد والنعمة والشكر لك لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك » فلما كان اليوم الرابع من ذى القعدة ، وقد بلغ الحجيج مكة ، فقضوا مراسيم الحج . وخطبهم عليه الصلاة والسلام خطبة الوداع . ثم نزل عن ناقته القصواء وأقام حتى صلى الظهر والعصر ثم ركبها حتى بلغ الصخرات ، وهناك تلى عليهم قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) .

وعاد النبى الى المدينة ، ومازال أمر الروم على تخومه الشمالية يشغله ،فأمر «بتجهيزجيش عرمالى الشام جعل فيه المهاجرين الأولين ومنهم أبو بكر وعمر ، وأمر على الجيش أسامة بن زيد بن حارثة» وانهم لفى جهازهم اذ مرض النبى واشتد به المرض، بعد أن زار « بقيع الفرقد حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة ، واستغفر لهم ، واتجه الى أبى مويهبه مولاه يقول : « انى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة . قال أبو مويهبه : بأبى أنت وأمى : فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . قال محمد : لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربى والجنة .

واختار النبى عليه السلام الرفيق الأعلى فى بيت عائشة ورأسه فى حجرها ، وتولى غسله أهله وكفن « فى ثلاثة أثواب ثوبين صماريين وبرد حبرة أدرج فيها ادراجا » وترك الجثمان حيث كان « وفتحت الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحية المسجد يطوفون . يلقون على نبيهم نظرة الوداع ويصلون على النبى ثم يخرجون وقد هوى الحزن بنفوسهم الى قرار سحيق » .

ويقول هيكل : « وانى لاستعيد الساعة بعد أكثر من ألف وثلاثمائة سنة من ذلك اليوم صورة هذا المشهد الرهيب المهوب فتمتلىء نفسى هيبة وخشوعا ورهبة ، هذا الجثمان المسجى فى ناحية من الحجرة التى ستصبح غدا قبرا والتى كانت الى أمس بساكنها حياة ورحمة ونورا ، هذا الجثمان

الطاهر لذلك الرجل الذى دعا الناس الى الهدى والحق ، وكان لهم المثل الأعلى فى البر والرحمة والاقدام والهدى وانصاف المظلوم والانتصاف من كل معتد أثيم ، وهذه الجموع تمر به كاسفة البال كسيرة الطرف ، وكل رجل وكل امرأة وكل صبى يذكر فى هذا الرجل الذى اختار جوار ربه أباه وأخاه وصاحبه ووفيه ونبى الله ورسوله ، أية قدسية تمتلىء بها تلك القلوب العامرة بالايمان الممتلئة اشفاقا مما يخبأ فى الغد بعد موت الرسول أستعيد الساعةصورة هذا المشهد الرهيب فأرانى شاخصا له مأخوذا به ممتلىء القلب من جلال هيبته ، أكاد لا أجد الى الانصراف عنه سبيلا ».

« وكذلك خرج محمد من هذه الحياة الدنيا لم يترك شيئا من عرضها الزائل لأحد بعده ، خرج منها كما دخل اليها وقد ترك فيها للناس هذا الدين القيم ومهد فيها الحضارة الاسلامية الكبرى التى تفيأ العالم ظلالها من قبل وسيتفيأ ظلالها من بعد ، وأقر فيها التوحيد وجعل فيها كلمة الله العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وقضى فيها على الوثنية فى كل صورها ومظاهرها القضاء المبرم ، ودعا الناس فيها أن يتعاونوا على البر والتقوى لاعلى الاثم والعدوان ، وترك من بعده كتاب الله هدى للناس ورحمة ، وكان فيها المثل الأسمى والأسوة الحسنة .. ثم ترك العالم بعد ذلك مخلفا هذا الميراث الروحى العظيم الذى ما يزال ينتشر فى العالم حتى يتم الله كلمته وينصر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون » . « صلى الله عليه وسلم » .

ويختتم هيكل مبحثه فى السيرة العطرة بفصل من مبحثين .. الأول : عن الحضارة الاسلامية كما صورها القرآن . والثانى : المستشرقون والحضارة الاسلامية ، يقارن فى أولهما بين الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية ، فبينما تقوم الحضارة الغربية على أساس مادى تقوم الحضارة الاسلامية « على أساس روحى يدعو الانسان الى حسن ادراك صلته بالوجود » . ويرى فى تلك الحضارة الاسلامية حلا لأزمة العصر ، فليس فى الاسلام سلطة دينية كالمسيحية ، والعقل والايمان هما سياج هذه الحضارة . ولكل فريضة من فرائض الاسلام حكمتها ، ونظامه الاقتصادى يقوم على أسس خلقية وروحية ، وفيه اشتراكية لم تبحث بعد وهى « الاشتراكية لا تقوم على أساس من حرب رأس المال ونضال الطوائف ، شأن الاشتراكية اليوم فى الحضارة الغربية ، وانما تقوم على أساس خلقى سام يكفل أخاء الطوائف وتكافلها وتعاونها على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان ، وهى اشتراكية لا تسود فيها طائفة طائفة أو تتحكم جماعة فى جماعة » .

والاشتراكية الاسلامية ، لا تقتضى الغاء التملك اطلاقا كما تقتضيه الاشتراكية الغربية وقد أثبت الواقع فى روسيا البلشفية وفى كل بلاد سادتها الاشتراكية أن الغاء التملك اطلاقا أمر غير ممكن . لكن المرافق العامة يجب أن تكون ملكا عاما مشاعا بين الناس جميعا ، وتحديد المرافق العامة متروك أمره للدولة ، « ومن ثم نرى أن الاشتراكية فى الاسلام ليست اشتراكية المال وتوزيعه وانما هى اشتراكية عامة أساسها الاخاء فى الحياة الروحية وفى الحياة الخلقية وفى الحياة الاقتصادية » .

وفى المبحث الثانى يفند أقوال المستشرقين ويردها الى الحقيقة من واقعها ، ويناقش ما ذهبوا اليه من أن « الجبرية الاسلامية أضعفت همة المسلمين وقعدت بهم عن الكفاح فى الحياة فهانوا وذلو » . مستشهدا بآى الذكر الحكيم على ما يأخذ

الأسلام معتنقيه من السعى والعمل ، فليس هناك أبلغ ممـا ورد فيه (أعن نفسك يعنك الله) من حيث القوة فى التعديل على الذات . واذا كانت الجبرية الاسلامية تخضـع لسـنة الكون التى « لا تحويل لها ولا تبديل » فان الجبرية الغربية « تخضع المرء لبيئتـه ووراثته خضـوع اذعان لا محيص عنه ولا مفر منه ، وتجعل ارادة الانسان بعض ما يخضع لبيئته فلا سبيل له لذلك الى أن يغـير نفسـه ، أما القرآن فيدعو ارادة كل فرد لتتوجه بحكم العقل الى ناحية الخير ، ويذكر لهم أنه اذا كان قد قدر لهم الخير فبما كسبب أيديهم وأنهم لاينالون هذا الخير اعتباطا من غير سعى »

ويمضى هيكل فى تفنيد دعاوى المستشرقين . مشيرا الى انقلاب الأمر فى تفكير المسلمين بسبب ما تعاقب عليهم من « حكم الغزاة الذين توالوا على الامبراطورية الاسلامية منذ انتهـاء العصر العباسى » وما كان من « تبدل الأمر من الشورى فى الصدر الأول ، الى الملك العضود أيام الأمويين، فالى الحق الا لهى أيام العباسيين » ثم يقارن بين ايثار الاسلام وأثرة الغـرب المسيحى . ويرى فى حياة الرسول الكريم من السمو والقوة مالم تبلغه حياة غيرها ، « وبلغت هذا السـمو فى نواحى الحياة كلها جميعا ، وما بالك بحياة انسانية اتصلت بحيـاة الكون من أزله الى أبده واتصلت بخالق الكون بفضل منه ومغفرة ، ولولا هذا الاتصال ، ولولا صدق محمد فى تبليغ رسالة ربه ، لرأينـا الحياة على كر الدهور تنفى مما قال شيئا . لكن الفا وثلاثمائة وخمسين سنة انقضت وما يزال بلاغ محمد عن ربه آية الحق والهدى ، وبحسبنا عـلى ذلك مثلا واحدا نضربه ، ذلك ما آوحى الله الى محمد انه خاتم الانبياء والرسل ، أنقضت أربعه عشر قرنا لم يقل احد خلالها انه نبى أو أنه رسول رب العالمين فصدقه الناس ، قام فى العالم أثنـاء هده القرون رجال تسنموا ذروة العظمه فى غير ناحية من نواحى الحياة فلم يوهب أحدهم هبـة النبوة والرساله ، ومن قبل محمد كانت النبوات تترى ، والرسل يتتابعون فينذر كل قومه أنهـم ضلوا ويردهم الى الدين الحق ولا يقول أحدهم انه أرسل للناس كافة أو أنه خاته الأنبياء والمرسلين أما محمد فيقولها فتصدق القرون كلامه ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصـديق الذى بين يديه وهدى ورحمة للعالمين » .

ولا يرى هيكل أنه أوفى على الغاية من البحث فيختتم بحثه بهـذا القول : « وغاية ما أرجو أن أكون قد وفقت لما قصدت اليه من هذا البحث ، وأن أكون قد مهدت به السـبيل الى مباحث فى موضوعه أكثر استفاضة وعمقا ، ولقد بذلت من الجهد فى ذلك ما وسعته طاقتى وما يسره الله لى » .

وكانت حيـاة محمد بداية يحدث فى التـاريخ والفكر الاسلاميين ، فرأينا أحمد أمين وطه حسين والعقاد وغيرهم يردون حيث ورد ، وتبقى حياة محمد على القمة من هذا الشوامخ جميعا .

دكتور حسين فوزى النجار